المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ فبراير سنة ١٩١٩ — ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨

الروحانية وتطورها

عند البدائيين وفي العصر القديم

— ٤ —

(تتمة البحث)

عالج ارسطوطاليس علم النفس منتحياً الوجهة الأحيائية (Biological)، فجعل النفس أو الروح — (psuchy) بسوخي في اليونانية — من نصيب كل الأشياء المادية التي لها قدرات مختلفة على الحركة الذاتية والنمو، أي لكل المتعضيات الحية. وكان مرماه من ذلك أن يفرق بين ما يتعضف بالحياة وبين اللاعضويات أو العالم اللاعضوي أي الذي لا حياة فيه، فقال بأن ما فيه حياة «حيوان» [1] أي «حي» أو «ذو نفس» أو «ذو روح». أما كلمة «بسوخي» اليونانية كما فهمها أرسطوطاليس فأقرب ترجمة عربية لها هي «الحياة»: Life أو «المبدأ الحيوي»، وأبعد ما نكون فهماً للمعنى الذي عناه ارسطو اذا ترجمناها «بروح» أو «نفس». فالحياة أو «المبدأ الحيوي» عند المعلم الأول هو الذي يميز بين المتعضي الحي وبين الأشياء اللاعضوية، وينطوي تحت هذا

(١) وإن الدار الآخرة لهي الحيوان (قرآن كريم)

المعنى كل الحصّيات التي للأحياء، بما فيها القدرات العقلية. ولقد نكون أكثر افصاحاً عن المعنى الذي عناه ارسطوطاليس اذا قلنا إنه قصد «بالروح» أو «النفس» مجموع الوظائف الحيويّة.

من مجموع القدرات الحيويّة أو بالحري «القوى النفسيّة» للمتعضيّات، استطاع ارسطوطاليس أن يفرق بين خمس صور مختلفة:

(١) مجموع القوّة النباتية: كالإسترداء والنموّ والتوالد
(٢) الشهوة والرغبة أو الدافع
(٣) الإحساس
(٤) الحركة الذاتية في خلال المكان
(٥) التفكير العقلي.

لا يشارك النبات الحيوان في شيء من ذلك إلاّ في الأولى دون الباقيات. أما الحيوان فله الأربعة الأُول، لأن اختصاصه بالوسطيّات الثلاث يتضمن الأولى استتباعاً. أما الانسان فيختص بهؤلاء جميعاً، ويتفرد بقوة العقل.

ليست هذه القدرات وظائف تقوم بها «نفوس» مختلفة، ولا هي مجالي مختلفة لأجزاء النفس. ذلك بأن النفس «وحدة» وكل كائن حي إنما هو توليف من نفس وجسم. ومع هذا فان النفس والجسم ليسا شيئين مستقلين، لأنه يتعذر على أحدهما أن يبقى بدون صاحبه، وأنه لا يمكن الفصل بينهما إلاّ في «الفكر» والنفس لا يمكن اعتبارها شيئاً ماديّاً، ولكن يتعذّر انفصالها عن المادّة. أما الجسم فهو «السبب المادي» للكائن المتعضّي، في حين أن النفس هي «السبب الفاعلي» بحكم أنها تحدث حركاته. وهي فوق ذلك «السبب الصوري» للمتعضي بحكم أنها هي التي تحدد صورة الفرد العضوي. وفوق هذا وذاك هي «السبب الغائي» لأنها هي الغرض الذي من أجله يوجد الجسم.

* * *

هذه هي الخطوط الرئيسة في مذهب أرسطوطاليس. أما ما يتفرع عنها كانفصالية النفس والجسد، أو علاقة النفس بالحياة والعقل، فتلك تفاصيل لا نعرض لها هنا، لأنها

بعيدة عما نرمي إليه من تلخيص الفكرة في الروح أو النفس .

ومن بحوث البحوث التي سقنا فيها القول في مذهب الروحانية ، نجد أن هنالك فكرة شاملة ثابتة في التفريق بين النفس والجسم أو بين الروح والمادة ، تلك الفكرة التي ثبتها أفلاطون في تقاليد الدنيا الثقافية ، وان هذه الفكرة لم تضعف ولم تهن في زمن من الأزمان. ولكن العصر الذهبي لهذه الفكرة ونعني به العصر الذي ظهر فيه سقراط وأفلاطون وارسطوطاليس ، قد عقبه عصر غلبت فيه ظواهر الشك فذاعت فيه المذاهب الشكية وبرزت الآراء المادية التي حاولت أن تقضي على الثنائية التي قال بها أفلاطون . فإن ابيقور وقد اعتنق مذهب ديمقريطس في الذرات (الجواهر الفردة) قد بشر بأن الروح عبارة عن مادة لطيفة تنتشر في جميع أبعاد الجسم ، وهي أشبه ما تكون بالهواء المشبع بقليل من الدفء ، وقال بأنها من أجزاء الجسم ، يستطيع الجسم بها أن يشارك في الاحساس وانها تندثر باندثار الجسم . فاذا حدث الموت تناثرت ذرات الروح في الهواء . وفرق أبيقور بين مظهرين من مظاهر النفس أو الروح . الأول المظهر اللاعقلي أو القوة الحيوية التي تتحكم في كل أجزاء الجسم ، والمظهر العقلي ومستقره الصدر وهو عضو الفهم والارادة . وفي هذا جاراه لوكريشيوس .

ولقد عقب على ذلك الرواقيون فكان لهم مذهب جديد يقول بأن النفس أو الروح لها أساس مادي يتألف من الهواء والنار ، وان هذا الأساس هو الذي يحكم في الجسم نماء وشعوراً وتفكيراً .

* * *

وعلى هذا ظل الفكر الانساني متراوحاً بين مادية ابيقور والشكية وبين المذهب الرواقي ، حتى ظهور الأفلاطونية الجديدة في الاسكندرية والمذاهب النصرانية ، فكانت الأفلاطونية الجديدة مثالاً لما تطور اليه الفكر الأغريقي ، والنصرانية مثالاً لما تطورت إليه المذاهب العبرانية .

اسماعيل مظهر

بترول الشرق الاوسط

يزداد مقامه في خارطة البترول العالمي

تدفق البترول من منطقة عسل في صحراء سيناء وفيراً وقبل ذلك انساب هذا السائل «المبارك» من ينابيع أخرى في مصر وفي الشرق الاوسط، وكل يوم يفضي بمنبط الاشام عن مستودعات جديدة غنيّة بالنفط اهتدي إليها مهندسو الزيت وخبراء التنقيب عنه .

وقد عرض لنا في مجلة «وورلد أويل» الاميركية مقال طيب عن منطقة بكر تشتغل في استنباط النفط في الشرق الاوسط فمن لنا أن ننقله ملخصاً إيضاحاً لجانب من جوانب صورة البترول العامة في هذه المنطقة الإستراتيجية .

فتعزم شركة البترول الاميركية المستقلة الشروع قريباً في التنقيب عن البترول وفي استخراجه تطبيقاً لما ظفرت به من امتياز يبيح لها العمل في المنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية في قلب الرقعة التي تعد أغنى منطقة بالزيت في الشرق الأوسط .

وقد أنشئت هذه الشركة في شهر أغسطس من عام ١٩٤٧ واشتركت فيها عشر شركات بما تملكه من موارد وتجربة للعمل في خارج الولايات المتحدة

والمفهوم أن شروط الامتياز التي فاوضت الشركة فيها الشيخ احمد الجابر الصباح حاكم الكويت تتضمن ما يلي :

أولاً — يدفع نقداً وعداً مبلغ ٧ ملايين وربع مليون دولار من مال الشركة الى شيخ الكويت .

ثانياً — يدفع رسم اكتراء (إيجار) سنوي قدره ست مئة ألف وخمسون ألف دولار

ثالثاً — تدفع للكويت حصيلة قدرها دولاران ونصف دولار عن كل طن أي نحو ٣٤ سنتاً عن كل برميل .

رابعاً — ربما اشترك حاكم الكويت في أعمال الشركة المزمع انشاؤها وقد يساهم فيها بنحو ١٥ في المئة . وقد قيل إن هذا البند من العقد في حاجة الى توضيح وتفسير . ويحتمل أن يقتضي الأمر إنشاء شركة أخرى تتعهد مصالح حاكم الكويت في هذا المشروع .

خامساً — تمنح الشركة الاميركية المستقلة حقوقاً بترولية كاملة في نصف المنطقة المحايدة على ساحل الخليج الفارسي وهي منطقة يملك الشيخ نصفها وتملك الملك عبد العزيز نصفها الآخر .

وتتمتع شركة البترول العربية الأميركية الآن بحقوق الأفضلية في الظفر بامتياز في النصف الآخر من تلك المنطقة وهو المملوك للمملكة العربية السعودية (مما يذكر ان الشركة تزلت عن هذا الحق لاشغالها بالمنطقة الواسعة التي يشملها امتيازها في المملكة العربية السعودية) .

وتتألف منطقة الامتياز من أرض صحراوية طولها خمسون ميلاً على أكبر تقدير تمتد من الشرق الى الغرب ، وعرضها معدله ٢٥ ميلاً . ومع أن الجيولوجيين فحصوا المنطقة المحايدة لم يستنبط البترول منها بعد . وتعمل الشركة على إيفاد جيولوجيين وسواهم من الخبراء الى تلك المنطقة ليعجلوا بتنفيذ المشروع .

***

وقد قال المستر رالف ديفيز — وهو الذي أذاع في لندن نبأ الظفر بعقد استغلال هذه المنطقة لحساب الشركة الاميركية المستقلة — « إن الشركة الاميركية المستقلة عند مفاوضتها لعقد هذا الامتياز ترى انها كتبت فعلاً سيكون له شأن كبير في المستقبل في تاريخ صناعة الزيت في الشرق الأوسط . فهذه أول مرة يجري فيها رجال مستقلون أعمالاً واسعة النطاق تعززها مالية كافية لاستنباط الزيت في الشرق الأوسط . ففي إيران والعراق والمملكة العربية السعودية وامارات الكويت والبحرين والقطر مستودعات للبترول تعم ملايين من براميل الزيت وها امكانيات من حيث الإنتاج في المستقبل تزيد حتى على ذلك

المقدار . وهذه اليناييع إما مملوكة أو خاضعة لإشراف عدة من الدول أو مجموعة من الشركات الكبيرة في بريطانيا وأميركا وفرنسا وهولندا وامتيازات بعضها تشمل مناطق فسيحة جداً بحيث أنه لم يستطع حتى الآن سوى كشف جزء يسير منها » .

واستطرد المستر ديفيز قائلاً : « ولعلَّ هذا الموقف لا يثير قلقاً شديداً ما دام الزيت موفوراً في جميع انحاء العالم ولا سيما في الولايات المتحدة بيد أنه بالتحول في الولايات المتحدة من عصر عرف بوفرة بتروله إلى عصر يشح فيه مورده ويجنوح الولايات المتحدة الى الاعتماد على البترول الخارجي ترتب على عدم وجود عنصر مستقل قوي في الخارج مشكلة ملحة مباشرة تهم كلاً من شركات البترول والشعب عامة

« وفي العصر الجديد للبترول في العالم نرى أن من مصلحة الحركة الصناعية بأسرها أن تتكيف مع الحقائق الماثلة . ولا يصح الرجل المشتغل بالبترول أن يعد عبارات « المزاحمة » و « الشركات الحرة » وما الى ذلك مجرد عبارات . فاذا كان لصناعة البترول التي طالما ألفناها أن تزدهر وتعيش يجب على المستقلين أن يبذلوا كل ما في طاقتهم ليجدوا لهم مكاناً في إنتاج البترول في العالم » .

وأشار المستر ديفيز الى أن في الكويت ـ اذا غضَّ الطرف عن المنطقة المحايدة ـ شركة للبترول اسمها « شركة بترول الكويت » تملكها بالتساوي « شركة الزيت الانجلو ـ إيرانية » وهي انجليزية و « شركة التنقيب في الخليج » وهي شركة أميركية وهاتان الشركتان تعملان في منطقة لعلَّها أغنى بقعة في العالم بالبترول ، فيقدر رصيد البترول المختزن في باطنها بنحو ٩ بلايين برميل . وهذه الحقول البترولية تتاخم في الشمال المنطقة التي منحت الامتيازات الجديدة لاستغلالها .

* * *

ونرى في مناطق أخرى من خارطة البترول في الشرق الأوسط سحباً مرجعها الى استمرار الحرب بين العرب واليهود في فلسطين . وقد نفت السفارة البريطانية في وشنطن ما قيل من أن لندن تسعى لمساعدة العرب بأن تبقي على معامل تكرير البترول في حيفا موصدة الأبواب . وأشارت السفارة الى أن شركة بترول العراق التي تشرف على المعامل

لا تملكها الحكومة البريطانية وقالت إن معامل حيفا أوصدت أبوابها بسبب عدم وجود يد عاملة نظراً لنشوب الحرب ويقول اليهود انهم لا يستطيعون توفير عدد كاف من العمال للعمل في المعامل وحتى إذا استطاعوا ذلك لا يسعهم أن يضمنوا اعادة فتح المعامل لأن انسياب البترول عبر خطوط الأنابيب الى حيفا يمكن وقفه في كل وقت من جانب الحكومة العراقية.

وينقل البترول الخام الآن الى طرابلس في لبنان ثم يشحن الى خارج الشرق الأوسط لتكريره.

والبترول الذي يكرر في معامل طرابلس الصغيرة هو البترول الذي ينساب اليها مباشرة من كيركوك.

* * *

أما أنابيب البترول التي كان يراد استخدامها في مد الخط عبر الجزيرة العربية من الظهران الى صيدا في لبنان فقد سلمت لشركة للغاز في ولاية تنيسي الأميركية.

وسبب العدول عن اتاحة هذه الأنابيب للاستعمال في الأراضي السعودية وما يليها هو أن «شركة الخطوط عبر الأراضي العربية» وهي منتسبة لشركة البترول العربية الأميركية لم تظفر برخصة اصدار من المسؤولين في أميركا بسبب بعض العقبات السياسية، ولم تظفر بابرام سوريا لاتفاق مرور الأنابيب عبر أراضيها.

وقيل إن الشركة تفكر في تعديل اتجاه خطوط الأنابيب بحيث تصب في ميناء العقبة الى الناحية الشرقية من شبه الجزيرة العربية. وهذا المصب يقتضي بدوره الشحن في قنال السويس الا اذا استطاعت الشركة أن تمد الأنابيب عبر صحراء سيناء الى البحر المتوسط. وقد يستطاع تحقيق ذلك بمد أنابيب تحت سطح الماء في العقبة وان كان من الصعوبة بمكان تنفيذ هذا المشروع لأن عمق الماء في تلك المنطقة يبلغ الفي قدم.

وإذا كان من المستطاع مرور أنابيب البترول عبر منطقة النقب الى ساحل البحر المتوسط حلت المشكلة على وجه مرض ولكن هناك عقبات تعترض ذلك.

هتيوات

لبشار بن برد

وذات دلٍّ كأنّ البدرَ صورتها ... باتت تغني عميدَ[1] القلبِ سكرانا:

(إنّ العيونَ التي في طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا)

فقلتُ أحسنتِ يا سؤلي ويا أملي ... فاسمعيني جزاكِ اللهُ احسانا:

(يا حبذا جبلُ الرّيان[2] من جبلٍ ... وحبذا ساكنُ الريانِ من كانا)

قالت فهلاّ فدتك النفس، أحسن من ... هذا لمن كانَ صبٌّ القلبِ حيرانا:

(يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقةٌ ... والأذن تعشقُ قبل العين أحيانا)

فقلت أحسنتِ أنت الشمس طالعةً ... أضرمتِ في القلب والأحشاء نيرانا

فاسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً[3] ... يزيدُ صبّاً محبّاً فيكِ أشجانا

يا ليتني كنتُ تفاحاً مفلجةً[4] ... أو كنتُ من قضبِ الريحانِ رَيحانا

حتى إذا وجدتْ ريحي فأعجبها ... ونحن في خلوةٍ مثلتُ إنسانا

فركتْ عودها ثم انثنت طرباً ... تشدو به ثم لا تُخفيه كِتمانا:

(أصبحتُ أطوعَ خلقِ الله كلهم ... لأكثرِ الخلقِ لي في الحبِّ عصيانا)

فقلتُ أطربتِنا يا زينَ مجلسنا ... فهاتِ إنكِ بالاحسانِ أولانا

لو كنتُ أعلمُ ان الحبَّ يقتلني ... أعددتُ لي قبلَ أن ألقاكِ أكفانا

فغنّتِ الشربَ صوتاً مؤنناً[1] رملاً ... يذكي السرورَ ويبكي العينَ ألوانا

(لا يقتلُ اللهُ من دامتْ مودتهُ ... واللهُ يقتلُ أهلَ الغدرِ أحيانا)

---

(١) عميد القلب : مريضه ، يقال : قلب عميد إذا هدّه الشوق وكسره . (٢) الريان : جبل في ديار طيء لا يزال يسيل منه الماء ، وهو في مواضع كثيرة منها . (٣) الهزج : ضرب من ضروب الاغاني فيه تطريب بتدارك النون وتقاربه . (٤) مفلجة مقسمة ويريد بذلك أنها إذا قسمت كانت أسطع نفحاً وأضوع شذاً وطيباً .

الشيخوخة
وطول العمر

هل من الضروري أن يهرم الانسان في سن الستين أو السبعين ؟

يقدّرون عادةً بداية الشيخوخة وما يطرأ على الانسان في هذا الدور من الحياة من التغيرات الجثمانية الكبيرة في سن الستين . غير أن هذه الأعراض أو العلامات تختلف كما لا يخفى اختلافاً كبيراً بحسب طبيعة الأشخاص، وبحسب طريقة معيشة كل واحد منهم ، وعاداته وأمياله وشهواته والعمل الذي يزاوله والأمراض التي انتابته ، ولا سيما الوراثة . أوَما علمنا الاختبار أن السر الحقيقي في اطالة الحياة هو المحافظة على القوى الجسمية والعقلية سليمة من كل شائبة ، والمعيشة الصحيحة والتغذية الصحيحة والاعتدال في كل الأمور ؟

بماذا تتميز الشيخوخة

والتغيرات التي تعتري المرء في دور الشيخوخة كثيرة متنوعة ، فمنها جسمية ومنها نفسية وأخرى عقلية ، والأولى من هذه التغيرات يكون ظهورها أكثر من النوعين الأخيرين . فجلده كما هو معلوم تفتر ، وجذوة الشباب فيه تنطفىء ويصير غير قادر على العمل أو بذل المجهود التي كانت تساعده عليها قوته وشبابه . ويلاحظ أحياناً عند بعضهم ، حتى في سنّ مبكرة ، (٣٠ أو ٣٥ سنة) : نقص في لدونة الجلد نتيجة اختراق الأملاح الكلسية لبعض الأنسجة ، وتكوّن الغضون في الجبهة والصدغين ، وزوال قسم من الشعر وابيضاضه قبل الأوان (حوالي سن الأربعين) ثم سقوطه تدريجاً بعد ذلك .

وهكذا قل عن الأسنان فانها تهترىء ويتطرق إليها التلف والفساد عند الهرمين قبل أوانهم — ومثلها العيون التي تصاب بطول البصر Presbyte . فصاحب هذا البصر لا يرى إلا من بعيد وإذا أراد أن يرى الأشياء أو الأشباح من قرب فلا يمكنه ذلك بدون استعمال النظارات . ويشاهد أيضاً عدا ذلك : قوساً حول القرنية يسمى بـ « قوس الشيخوخة » Arc sénile كما أن الصوت يضعف والأذن يغدو سمعها ثقيلاً ، ويكون النفس أقل نشاطاً

أو الخريصلات الرئوية تفقد مرونتها ، والعظام تمسي أشد صلابة ، والغضاريف التي بين فقرات الظهر تستدق فيؤدي ذلك الى نقص محسوس في طول الانسان . أضف الى ما تقدم : تكوّن نسيج خلوي في الأحشاء كالكبد والكليتين والمخ والأعصاب والشرايين فيعوقها عن القيام بوظائفها ، وينشأ هذا النسيج نفسه من اهمال الجسم سواء تغذيته والحط من مستواه الصحي . وأخيراً درجة الحرارة الطبيعية ، فهذه تكون بوجه عام عند ابن الستين ٣٦ مئوية ، وعند ابن الثمانين ٣٥ مئوية في غالب الاحيان .

ويتقدم الانسان في السن تقل حاجته الى النوم . فابن الخمسين أو الخامسة والخمسين مثلاً يكتفي بست ساعات من النوم ليلاً دون أن يشعر بتعب ما . وبعد هذه السن تراه يكتفي بثمان ساعات فقط : هذا للقاطنين في المدن . أما سكان القرى والأرياف أولئك الذين يحرثون الاراضي ويقومون بأشغال مضنية متعبة فيحتاجون طبعاً الى ساعات أكثر من النوم . ولننظر الآن من ناحية الطول والوزن ، فالمشاهد أن الطول يقل شيئاً فشيئاً بتقدم الانسان في السن وذلك اعتباراً من سن الخمسين بسبب خسف الأقراص الغضروفية بين العظام ، ولا سيما بين الفقرات الظهرية ، ومن بعض الانحناء الذي يحدث في العمود الفقري

والوزن بدوره يقل أيضاً بتقدم الانسان في السن في سن الخمسين أيضاً عند الرجل بعكس المرأة التي يزداد وزنها في هذه السن ، حتى اذا ما بلغت الستين من العمر يأخذ أن يقل حينئذٍ وزنها . ويبلغ مجموع ما يفقده الرجل من الوزن في سن الشيخوخة ٩ كيلوغرامات ، والمرأة ٨ كيلوغرامات ونصف .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فالقوى العقلية يطرأ عليها تقهقر وانحطاط في ذات السن . فعند البعض يكون هذا النقص مبكراً ، وعند البعض الآخر متأخراً . ومهما يكن في الأمر فالقوى العقلية تضعف بضعف القوى الجسدية وتقوى بقوتها . فكلاهما يسيران جنباً الى جنب من حيث القوة والنشاط أو الضعف والانحطاط .

وأول ما يضعف من القوى العقلية هو الذاكرة ، ويليها الحكم بالاشياء ، وأعني بذلك تلك الخاصة العقلية المميزة التي تقابل وتقايس الامور وتحكم في صحتها أو خطأها .

وهنالك أيضاً قضية الشعور والحس والعواطف ، وهذه أيضاً تتبدل بدورها عند كبار السن . فالشعور بالفرح أو الألم ، أو بعاطفة الحنو والشفقة والرفق ، أو الحساسية تجاه شعور الآخرين ، تغدو عندهم ، وفي بعض ذويهم أيضاً ، ضعيفة ان لم تقل معدومة غالباً ، لأن أولئك الشيوخ والمسنين لا يتأثرون إلا بالاعمال التي تعود اليهم أو التي لهم فيها نصيب مباشر .

وأخيراً الاضطرابات النفسية ، وهذه لا تحدث لحسن الحظ إلا متأخرة . ذلك لأن الذي يبلغ سن الهرم يفقد أحياناً الحس الأدبي الذي يجعله أن يميز بين الخير والشر ، وما يجب أن يعمله أو لا يعمله ، ولهذا يكون عادم الشعور أحياناً بما يأتيه في الأعمال دون أن يدرك عواقبها وما يترتب عليها من المسؤولية .

ولا بد من التنويه هنا أيضاً بأن عقلية كبير السن تختلف اختلافاً جوهرياً فيما إذا كان عزباً أو متزوجاً أو له أولاد أيضاً . فاذا كان عزباً ، وهو الذي عاش داعماً منفرداً منعزلاً ، وحصر كل جهوده في محبة نفسه ، نرى ان كل ما يزعجه أو يعاكسه أو يبدل من عاداته الصغيرة سيكون مكروهاً ممقوتاً في نظره . وبما أنه قد تجنب طوعاً اعباء الحياة وتبعات الزواج والأولاد فحبة الذات تنمو وتزداد فيه أكثر فأكثر بتقدم السن ولذا نراه يكره غالباً الأولاد الصغار وحركاتهم وضجيجهم ، ويسيء الظن في من كانوا أعزاء لديه في شبابه وينظر اليهم بالحذر والاحتراس . وعلى نقيض ذلك يكون الرجل المتزوج المحاط بالعائلة والأولاد ، فإن الهرم لا يدركه بالسرعة كما يدرك الرجل الأعزب ، بل يأتيه بعد أوانه ، كما أن قواه لا تميل الى الانحطاط بل تأتي بطيئة وفقاً للمحيط الذي يعيش فيه أو يفتكر به في كل لحظة ، والذي يضطره غالباً الى أن ينسى نفسه أو يضحي بها لأجله .

تلك هي أهم التغيرات الجثمانية والعقلية والنفسية التي تصيب الانسان في سن الشيخوخة. ولكن هل يجب أن تكون هذه الحالة عامة لأن البعض تكون حالهم هكذا حينما يشيخون ؟ ، وهل من الضروري أن يهرم الانسان في سن الستين أو السبعين ؟ كلا ليس من الضروري ذلك وفي يده مفتاح الشباب الدائم ، فالمحافظة على القوة والنشاط الجسماني وكيان القوى العقلية والنفسية في حالة جيدة حتى سن متأخرة تتوقف ولا ريب على كيفية معيشة الانسان في حياته ، فكم من المرات مثلاً نرى أشخاصاً في شرخ الشباب وهم متهكمو القوى خائرو العزيمة سريعي العجز، والهرم أدركهم قبل الأوان ، وآخرون بالعكس من ذوي البنية القوية ، نشيطي الحركة والأعمال ، وهم من أبناء الستين والسبعين ؟ فمجرد السن اذاً لا يكون دليلاً قاطعاً على عجز المرء وضعفه . ولدينا أمثلة تحتذى عن أشخاص كثيرين بلغوا عتيّ من العمر ، وبقيوا محافظين على قوتهم الجسمية والعقلية . ويضربون المثل بروكفلر الكبير الذي حتم أن لا يرحل عن الدنيا قبل أن يبلغ عمره مائة عام . وقد احتفل بميلاده السادس والتسعين . ولويد جورج انسياسي المعروف ورئيس الوزارة البريطانية ابان الحرب العالمية الأولى ، كان يذهب الى ساحات القتال على ما عهده الناس فيه من بأس وقوة وعمره ٧٢ سنة ، فالسنون لم تؤثر فيه وكأنه كان شاباً في جسمه وعقله .

وهكذا قل عن فردي الموسيقي الايطالي العظيم الذي ألف أنواعاً كثيرة في الأوبرا وهو في الرابعة والسبعين والثمانين والخامسة والثمانين . ومثله القيلد مارشال هندنبرغ الذي مات في الرابعة والثمانين من عمره بعد ان بقي يتقود أزمة الأمور في بلاده في أحرج الأوقات حتى آخر نسمة من حياته .

وهنالك أيضاً فاندربلت المالي الأميركي الشهير الذي أضاف الى ثروته الطائلة مائة مليون دولار وهو بين السبعين والثالثة والثمانين من عمره — مما يدل على انه ظل محتفظاً بقواه العقلية ومواهبه وهو شيخ مسن ، ولا لما تمكن من جمع هذه الثروة العظيمة .

ولا ننسى كذلك أحد معاصرينا المشهورين ألا وهو الكاتب الارلندي الكبير برنارد شو الذي بلغ العقد الثامن من العمر وهو لا يزال في أوج مجده الأدبي يؤلف الروايات التمثيلية المختلفة .

وقد دلت احصاءات عام ١٩٣٣ في بريطانيا على انه توفي هذا العام ١٠٩ أشخاص كلهم بلغ مائة عام أو تزيد . والثابت اليوم ان نسبة المعمرين في أيامنا هذه قد ارتفعت بمقدار ١٥ عاماً بفضل تقدم العلاج وتنظيم الصحة الشخصية والوقاية من الأمراض المتوطنة وغيرها . وفي استطاعة الانسان أن يعيش قرناً من الزمن اذا عاش عيشة صحية معتدلة ، وحافظ على قواه الجسدية والعقلية ، وتجنب الأسباب المضعفة للجسم والمنهكة للاعصاب . أما اذا أطلق لأهوائه وأمياله وعواطفه العنان ، وأسرف في بذل جهوده العقلية والجسدية وتفنن بألوان الطعام والشراب ، وحرم نفسه من الراحة والرياضة والتنزه والهواء الطلق ، واستسلم الى الهواجس والاضطرابات الفكرية ، فلا غرابة بعد ذلك اذا اعتل جسمه وتهدمت فؤاده ، وانتابته العلل والأمراض ، وغلب في ميدان الكفاح .

ولا يجب أن يغرب عن البال ان الوراثة تلعب أيضاً دوراً هاماً في اطالة أمد الحياة . فكثيرون منهم الذين بلغوا مائة عام أو أكثر كانوا من عيال بلغ أفرادها هذه السن تقريباً . وتدل الاحصاءات الفرنسية الرسمية ان النسبة المتوسطة للحياة تزداد بصورة محسوسة مع الزمن . فبينما كانت في فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، تسعة وعشرين عاماً فقط ، تراها تبلغ فيها في عام ١٩١١ تسعة وأربعون عاماً . أما في الكلترا فقد بلغت النسبة المتوسطة للحياة في عام ١٩١٢ خمسين سنة . وفي أسوج واحد وخمسين ، وفي الولايات المتحدة خمسة وخمسين .

ومما تقدم يظهر لنا أن مدة الحياة تزداد الآن سنة واحدة كل عشر سنوات . واذا فرضنا أن هذه النسبة تستمر في الزيادة بفضل تقدم الصحة العمومية والشخصية ، والطب

الوقائي، وتحسين شروط المعيشة ، فمن السهل أن نحسب أنه بعد خمسمائة أو ستمائة عام تكون السنة المتوسطة للحياة مائة عام تقريباً .

العوامل المساعدة على بلوغ الهرم المبكر

ان بلوغ الهرم في أوانه أو قبل أوانه يتوقف كما قلنا على سلامة القوى العقلية والجسدية ، وقديماً قالوا العقل السليم في الجسم السليم . ولكننا نتساءل هنا : هل أن كل الناس يعيشون الآن عيشة صحية ، وأجسامهم سليمة من العلل والأمراض ويسيرون سيراً حكيماً معتدلاً في أمورهم ؟ كلا . فكثيرون منهم يعتقدون في الغالب أنه ما دام الانسان متمتعاً بصحة جيدة فليس في حاجة الى التقيد بالقواعد الصحية . ذلك هو السبب في أن أمراضاً شتى تصيب الانسان في عصرنا هذا نتيجة الافراط في كل شيء ، فيندفع المرء في تيار المدنية الحديثة ، والحياة في ظل حضارتنا هذه تغري بالاسراف في بذل الجهود والقوى الجسدية والعقلية ، والتفنن بألوان الطعام والشراب ، والسهر الطويل ، واطلاق العنان للأميال والأهواء ، والحرمان من راحة الجسد والعقل — وهذا كله لا يستعجل الشيخوخة فقط ، بل يقضي على الانسان قضاء مبرماً عاجلاً أو آجلاً .

ويزيد الطين بلة انحراف بعضهم عن جادة العقل والصواب بسبب ادمان المسكرات ، والافراط في التدخين وتعاطي القهوة والشاي بمقادير زائدة ، والتسمم بالأفيون والمورفين والكوكائين والحشيش الخ . وهذه كلها سموم قتالة تدك أركان الجسم وتضعف قواه ، وتقود حتماً الى الهرم والسقام ، والعلل المختلفة من حيث لا ندري . وتزداد الحالة شؤماً وويلاً انغماس الكثيرون منهم في حمأة الرذيلة وتفشي الأمراض السرية (الزهري والسيلان) التي جنته علينا المدنية الحديثة . ولا يقتصر ضرر هذه الأمراض على المصاب فحسب ، بل يتعداه الى نسله والى المجتمع أيضاً .

اننا لا ننكر طبعاً حسنات المدنية الحديثة ، وما أفادته من بعض الوجوه ، لكنها بالعكس أضرت من وجوه أخرى . والانسان هو الذي يجني ثمار الأغلاط التي يرتكبها غالباً عن جهل أو عن اهمال لاختلاله بالتوازن الذي قضت به سنن الطبيعة بين قواه ومواهبه العقلية والجسدية من جهة ، ولعدم معرفته معرفة تامة كيف يتدبر العوامل الجديدة التي جلبتها اليه المدنية الحديثة وتلافي أخطارها .

فاذا أردنا ابعاد الشيخوخة ما أمكن ، علينا أن نقتبس حسنات مدنيتنا هذه لاصلاح ما أفسدته من حالتنا الصحية ، ثم جعل موازنة بين أوقات العمل والراحة . فوقت العمل يجب أن يُصرف في العمل كي يوفر الانسان لنفسه مقداراً كبيراً من أوقات الفراغ ، وكلما

تقدُّم الانسان في السن يقلل عدد ساعات العمل . فعند ابن الاربعين يكون عدد ساعات العمل ساعة واحدة لكل خمس سنوات يتقدمها في العمر لغاية سن الثمانين أو التسعين .

ولا بدَّ كذلك من اعطاء الجسم حقه من الراحة ، ولا سيما النوم . فالنوم المبكر والنهوض المبكر من أفيد الاشياء لصحة العقل والجسم وراحة الاعصاب . والراحة التي يتطلبها الجسم ليلاً لا تتوقف على الوقت الذي يقضيه الانسان في النوم بل على النوم نفسه ، لان نوم ساعات قلائل براحة تامة أفضل بكثير من الاضطجاع ساعات كثيرة في حالة سهاد متقطع ، أو أرق مضن يرهق الجسم بدلاً من أن يلبي حاجته الضرورية في الراحة فليس كالنوم الهادىء معوان على اكتمال الصحة وتمام العافية .

ويتعين أيضاً على من يريد الاحتفاظ بصحته أن يكون طعامه صحيًّا منوَّعاً موافقاً لحاجات جسمه ، ويكون بنوع خاص قنوعاً في أكله وشربه لان الاكثار من الطعام يجلب البدانة وأخطارها كالاصابة بالبول السكري ، وارتفاع ضغط الدم ، واضطرابات القلب ، وتصلب الشرايين وحصى المرارة وغيرها . وطبيعي أنه كلما تقدَّم الانسان في السن تقل كفاءة أعضائه في تأدية وظائفها ، خصوصاً اذا كانت الأسنان مسوسة فاسدة ، وفي هذه الحالة يكون المضغ سيئاً فيؤدي ذلك الى إجهاد المعدة وسوء الهضم وبالتالي الى تعب الكلى وأمراضها والى التسمم البطيء المزمن .

والرياضة البدنية كما لا يخفى هي أيضاً من أهم الامور ، ولا سيما السير على الاقدام في الشمس والهواء الطلق . ومن أنواع الرياضة المنافعة لمتوسطي السن المشي والسباحة والتجديف والصيد وركوب الخيل الخ التي اذا عُملت في أوقات النزهة والراحة ، تساعد كثيراً على تنمية الجسم ونشاطه ، وعلى تنمية الصحة النفسية من حيث الاتزان ورباطة الجأش وازالة الكرب وإبعاد الحزن والهم وتخفيف أعباء الحياة عن الاجسام المتعبة والنفوس المكتئبة .

نصائح وارشادات لابن الستين وما بعد هذه السن

١ — ﴿ الطعام والشراب ﴾ : القناعة في الطعام والشراب من أهم القواعد الصحية الواجب على المرء اتباعها ولا سيما لكبار السن ، لان الشراهة في الأكل ، كما قال الطبيب الانرنسي غاستون دورفيل Gaston Durville احدى جروح الانسانية الكبيرة لانها تهلك اليوم من معاصرينا أكثر مما يهلكه السل والسرطان معاً .

ويقول أيضاً المفكر الكبير تولستوي بشأن ذلك انا نأكل في عصرنا هذا ثلاث مرات أكثر مما يتطلبه جسمنا . وهذا ما يؤدي الى أمراض شتى تعمل على تقصير أمد

الحياة قبل الأوان، فالحياة ليست قصيرة ، ولكننا نحن الذين نعمل على تقصيرها .

فأهم ما يجب عمله على الذين بلغوا تلك السن أن لا يأكلوا أكثر مما تسمح لهم به شهيتهم، وإذا كانت هذه الشهية زائدة عندهم فعليهم أن يكونوا معتدلين بها ، إذ لا شيء أضر لكبار السن من الاعتقاد بأن الاكثار من الطعام يزيد في قوتهم ونشاطهم .

ولا بد من الاقلال بنوع خاص من تعاطي اللحوم، ويكفي لذلك مرة واحدة في اليوم بكمية قليلة . والأفضل مرة واحدة أو مرتين في الاسبوع . ويفرم اللحم عند التزوم في حالة تسوس الأسنان أو سقوطها ، وكلما قلل كبير السن من المواد الزلالية والدهنية في طعامه كان هضمه أسهل . أما من ناحية السمك والبيض فيجب اعتبارهما كاللحم تماماً من جهة خواصهما الغذائية . فمرة يعطى اللحم ، ومرة أخرى السمك أو البيض ، وليس كلها في وجبة واحدة . والسمك البحري أو النهري يعتبر أسهل اللحوم هضماً ، وهو أيضاً أكثرها احتواء على الفوسفور واليود . انما يحسن بالانسان ألا يتناول السمك في وجبتين متواليتين إلا بمقدار قليل، لأن الاكثار من الأسماك واللحوم ينتج عنه تراكم العمل على الكلى والكبد فوق طاقتها مما يجعل صحتها في خطر — هذا فضلاً عن تعرض المأكولات المذكورة لسرعة التعفن وتوليدها للحوامض .

ويقلل أيضاً كبير السن من تناول أنواع الخضار الكثيرة البروتين كالحمص والفاصوليا والفول والعزلة والعدس لأنها عسرة الهضم وعرضة أيضاً للتعفن . ويعتمد بالعكس في طعامه على أكل البقول الخضراء الطازجة والمسلوقة ، والبطاطس والألبان والزبدة والفواكه الناضجة والأثمار المطبوخة Compote ، والحليب الساخن وحساء الخضر الساخن والمهلبية والحليب المطبوخ بالأرز والسكر والمربيات . ولا بأس من تناول الشاي والقهوة بمقادير قليلة . وبالاختصار نقول أن أوفق غذاء له هو غذاء الطفولة . والمهم تجنب الأطعمة الصلبة العسرة الهضم لأنها تهيج الامعاء ، واختيار أبسط الأطعمة في الغذاء .

٢ — ﴿ الرياضة البدنية والاستحمام ﴾ : أحسن ضروب الرياضة ، وعلى الخصوص لكبار السن ، المشي ميلاً أو ميلين في اليوم . ويحترس هؤلاء من الرياضيات الجسمية المتعبة مثل ركوب الدراجة وصعود الجبال والسباحة والسير الطويل على الاقدام الخ ، ولا ينكر أن مثل هاته الرياضات تنشط الجسم وتنمه القلب والرئتين ، غير أن فائدتها هذه تكون بالأحرى لأشداء البنية وليس لأبناء الستين وما بعدها لأنها تكون عليهم عبئاً ثقيلاً

ومن فوائد الرياضة البدنية الخروج للنزهة بعد الطعام ولو لمدة قصيرة فقط ، إذ لا شيء

أضر من الحياة الجلوسية والمكث في البيوت والحوانيت بلا حركة، ان الصحة لا تقوم الا بتروّيض وظائف الجسم، والأعضاء، اذا لم تروّض، تضعف قوتها، هذا فضلاً عما تجلبه الرياضات للجسم من انشراح الصدر، وتنبيه شهوة الطعام وتقوية الهضم، وان رافقها ملل أحياناً

وبين الرياضات الأخرى المسلية لأبناء الستين أيضاً: صرف جزء كبير من أوقات الفراغ في زراعة الأزهار في الحدائق والبساتين، والنجارة والتصوير الخ. فكثيرون من الرجال العظام كانوا يصرفون أوقات فراغهم بمثل هذه الأمور المسلية، ولكن يوجد هنا نقطة أخرى هامة يقف عندها حائراً كبير السن عند ما يحال مثلاً على التقاعد، أو حينما ينسحب من العمل من تلقاء نفسه — بعد أن اشتغل كثيراً في حياته على أمل أن يستريح في شيخوخته هو أنه يجد نفسه بعد الانسحاب من شغله كأنه ضالاً. فكتبه وشغله وأعماله الاعتيادية تنقصه فجأة، ولا يدري ماذا يعمل وكيف يقضي وقته، فيعتريه الملل والضجر، ولا شيء أضر للانسان فعلاً من الملل والضجر! قالأشخاص الذين ظلوا محافظين على قواهم ومواهبهم الى سن متأخرة تكون حياتهم نشيطة عادة، والنشاط ضروري لكبير السن كما للبالغ، والمهم معرفة أشغال وقت الفراغ ولكن ليس في سن الستين أو الستين يجب أن نفتكر بخلق أشغال جديدة توافق هذه السن، بل يجب الافتكار بذلك قبل الانسحاب من العمل (أي قبل الستين) والاستعداد للحياة الجديدة التي سيعيشها المرء بعد هذه السن، فهذا يحب مثلاً أن يكون بستانيًا ويحرث الأراضي والبساتين، والآخر يميل الى تربية النحل، وغيره الى النجارة وما شاكل ذلك

أما من ناحية الاستحمام، فكبار السن يفيدهم خصوصاً الحمام القاتر، ولا سيما النمرك الناشف للجلد بكفوف الشعر، والاستحمام بماء القاتر يفيد بنوع خاص في مدة الحر ومدة الشتاء لئلا يكون الجسم بارداً لأنه ينعش القوى ويزيد التهيج العصبي

٣ — ﴿ الملبس ﴾ لاشيء خصوصي يمكن ذكره عن الملابس لكبار السن، فهؤلاء يكونون كما لا يخفى سريعي التأثر بالبرد، ولذا يجب أن تكون ملابسهم حارة خفيفة، وألاّ تضغط على الجسم لئلاّ تعوق الأعضاء عن تأدية وظائفها الحيوية، وتكون أيضاً واسعة، كثيرة الخلايا بحيث يخترقها الهواء بسهولة لصحة البشرة وتنفس الجلد. فالهواء ضروري للبشرة بمقدار ما هو ضروري للرئتين، فينبغي ألاّ تحول الملابس دون وصوله إليها.

بيروت — لبنان الدكتور عبده مدور

نظرات فى النفس والحياة

— ١٢ —

نظرات لورد بيكون

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الانجليز الذين أُولع أهل الخيال والأهواء بهم فتارةً يزعمون كما قرأت في مقال إنه ادوارد السادس مع أنّ بين ميلادهما فرق يقرب من الجيل، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يستطبه أبوه السير نيكولاس بيكون الى قصر الملكة اليصابات وكان من أعوانها وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير وأسرته معروفة والبيت الذي ولد فيه غير مجهول وكل حوادث حياته حقائق معلومة فليس في حياته أي غموض . وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون انه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمي ولكن شكسبير كان مكثراً من العمل ويكون كان مكثراً من العمل ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معاً مهما كانت قدرته . وبالرغم من أن بيكون كان أديباً فانه كان يعد البحث العلمي العملي أهم من الأدب وقد مات بسبب أنه خرج في يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهي حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن . وقد كان ينعي على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملي العلمي وله مؤلفات كثيرة فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء في أساطيرهم وكتاب أقوال مشاهير الرجال وكتاب اطلنطيس الجديدة وكتاب تاريخ حياة هنري السابع وكتاب (نوفام أورجانوم) أي الأداة الجديدة في العلم والتعليم وكتاب تقدم العرفان ، وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله في البرلمان وفي المحاكم في سماع القضايا والحكم فيها وكتابة أسباب حكمه بعد التفكير فيها وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير ولم يشتهر بشيء من الشعر مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر في عهده حطة لهم ، فكيف كان يستطيع

مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة ؟ على أن في قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية ما لا تقل من عظمة عبقريته كشاعر ولكنها هي والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل يكون وشكسبير في بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو تكاية زملائه وهذا لا ينطبق على بيكون كما أن شكسبير كان في بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء . وهذا أيضاً يستبعد من بيكون الذي كما يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وان كان أكبرهم فنسب قصصه الى غيره . أما بحوثه العلمية التي كان يقضي بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر ولا غرابة في ذلك . ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة في العلم والوصول من الشواهد الخاصة الى القاعدة العامة ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأً عامًّا واشترطها في البحث العلمي العملي في كتابه عن العلم والتعلم . ولا شك أن عقله كان أكبر من قلبه ولا داعي للخوض فيما اتهم به من العيوب إلاَّ أنه من الضروري أن نقول إنه جوكم لقبوله الرشوة في القضاء واعترف بذلك قائلاً إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل . وقد ندم على ما فعل وقد عومل بالرفق في محاكمته ثمَّ ما لبث أن أطلق صراحه وأسقطت عنه الغرامة التي فرضت عليه . وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية : —

(١) الحق كضوء النهار لا يزين قناع زخارف الحياة المموَّهة وأباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم وتزجات نفوسهم اذا كان الحق خالصاً من شائبة الخداع للنفس ، كما يزينها إذا كان مشوباً بشيء من الخداع للنفس بالباطل خداعاً قد يكون غير مُدرَك . وضوء هذا الحق الحق المشوب بخداع النفس ، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع في المراقص المُقنَّعة ليلاً يخفي تفاصيل ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين تباهيها المستعار ويخفي بعض ما بها من ادعاء . ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من غير تعمد للخلط شيء من الباطل كي يقلل من نور الحق فلا يتم على أكاذيب الحياة وهي كثيرة ، وهل من شك في أنك اذا سلبت من انسان كل ما في عقله من آراء لا أساس لها من الحق ، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التي تعلقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه

والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام في الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائفة . فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدنُ الخسيس الأشد صلابة الذهبَ الابريزَ كي يزيده صلابة ويجعله أصلح ، كنقود في المعاملات وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط .

(٢) جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت . وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما في الموت وهو تلف الجسم كله بما في تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم ؛ وهو قياس غير صحيح لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم والألم فيها أسرع مفعولاً . فكثيراً ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم . وليس في النفس احساس قوي يعجز عن التغلب على الخوف من الموت . فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والاحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الاشفاق والرحمة وهي أرق الطباع ، كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت وحتى الملل من الأمر المعتاد المكرر قد يتغلب على الخوف من الموت فالموت إذاً أقل شدة وبأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين .

(٣) من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله ، فيؤدي ذلك الى الاجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو . لقد كان من الكفر والاجرام قول ابليس إني أريد أن أصعد الى عرش الله . أليس مما هو أشد كفراً وإجراماً أن يريد المرء ازالة الله من علىٰ عرشه كي يشركه في قسوة الانسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر .

(٤) إن من أعظم العظمة التي هي في منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر . ويعجبني قول سنكا الفيلسوف الروماني في هذا الموضوع (أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى بالمطمئن الرب) .

(٥) إن الحزن الذي تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والايمان كالثوب القاتم اللون

المطرز بالخيوط الزاهية البهجة . فهو أملأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التي تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتي تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد .

(٦) مهما كان الرياء لازماً فهو مظهر من مظاهر العجز في الأمر الذي لجأ اليه المرائي إذ لولا العجز فيه ما لجأ الى الرياء .

(٧) من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها ، فاذا لجأوا الى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون في مكرهم عن أبصار الناس . وهذا يذكرني قول أبي تمام الطائي :

مكنَ الكيدُ فيهمُ إن من أعظم لدبير أن لا تُسمى أريبا

(٨) الرجل الذي يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول ما لا يعرف ويدّعي انه شاهد ما لم يشاهد وحضر ما لم يحضر . والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم ؛ والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان . وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبة ووقاراً . ومن أغرى أهل الفضول بمعرفة سر ما يكتم في صمته . وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لا تنم على ما يكتم لأن الناس يصدقون ما تنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وان نمقه وزينه . ومن مزايا الكتمان أنه يدعو الى استتامة أعدائه والى مباغتة مناضليه وانه يدع لنفسه طريقاً للتراجع إذا اضطره الأمر إذ لو أعلن أمره اضطر الى المضي فيه أو الى إظهار العجز والخيبة . وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم لكن المبالغة في الصمت والكتمان قد تغري الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل . ثم إن صمت مثل هذا المبالغ قد يحير من يريد أن يعاونه وأن يشركه في أمره فيفقد ثقة بعض الناس . ولعلّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لا يعاشرهم ولا يحادثهم .

(٩) يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء في تنمية روح المنافسة فينمو التحاسد والتباغض في نفوس الأطفال الصغار من حيث لا يشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة القريبة ولا ينظرون الى ما يمكنونه في النفوس البشرية

من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها في الحياة كثير وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة . وانما يلجأون الى هذه الخطة لأنها في نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال .

(١٠) في النفوس صفة لؤم ذائعة وهي أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والحمقان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلا إذا صادف نفساً كبيرة تجمل نقصها زائداً في شرفها وشفيها ولمحها، إذ يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه . والحسد داء الأمم والدول ومضعفها ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم اذا خشوا عاقبته. والحسد كالوباء قل خشي الوباء كثيراً وضعر منه أصابته غائلته من الرعب. وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء . وإذا فشا الحسد في أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه . وفي أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصاً والرأي السديد خرقاً والعمل الصادق عملاً كاذباً في دعوى ذوي الحسد الذين يرون في انقلاب الأمور وحقائقها إخفاء لحسدهم ونقصهم وهم مثل الزارع الذي يزرع الشوك والحسك في الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو .

(١١) قال ديموستنيس الخطيب الأثيني أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة في الحركة والعمل وكذلك ألزم صفات النجاح في الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة . مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود لأنه إذا تشعب منه الفكر تردد في شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها فالجرأة أحط من غيرها من الصفات الفاضلة . ومع ذلك فهي من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها .

(١٢) قد يكون المرء صالحاً جداً حتى أنه من شدة صلاحه لا يصلح لمباشرة أي عمل من أعمال الدنيا بنجاح . والحقيقة هي أن النجاح في الحياة قد يتطلب — إلا إذا جاء عفواً — شيئاً ولو قليلاً من المكر والاحتيال يخالط فعله وصلاحه . وقد يخفيه ذلك

الفضل ولكنه موجود يخفي حتى على بعض من يتنكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ونوع التقليل منه، وإما جهلاً بأن الغباوة لا تجافي المكر والاحتيال. وإن المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح وكثيراً ما يلجأ إليه الغبي كي يجعله عوضاً عما حُرِمَه من الذكاء والفكر

(١٣) قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الاسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور في أمور لا حاجة إليها وأن توهم غير ذلك) ان الاسراف في أمر من الأمور يقتضي الاقتصاد أو التقتير في أمور أخرى — وهذا يذكرني قول معاوية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: — ما رأيت إسرافاً قطّ إلاّ والى جنبه حق مُضيَّع.

(١٤) سوء الظن يكثر في ظلام العقل كالخفافيش تكثر في الظلام واذا عظم سوء الظن عطّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا الى الظلم والغيرة والتردد والحزن والى فقد الأصدقاء. واذا كان سيء الظن جباناً هلوعاً يتملكه الذعر والرعب اذا فكر فيما يسيء به الظن فإن رعبه قد يدفعه الى عدم التثبت ظنّاً انه اذا تعجّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه. واتقاء ما يساء به الظن كأنه أمر حقيقي لا خطر منه، بل هو لازم اذا لم ينزله المرء في نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحق لمعاقبة من يسيء به الظن وكذلك الذي يساء به الظن وهو بريء أو يخشى ان يساء به الظن ينبغي أن لا يظهر في ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاّ أُسيء به الظن ريبة وان كان بريئاً كما قال الطغرائي الشاعر (إن الهَيُوبَ مُريبُ) في بيته الآتي:

تخشى بسالتُهُ صَفائح عِمْدِهِ وسَمامُهُ إن الهَيُوبَ مُريب

(١٥) إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به، وقد تحمود الصراحة وتبطل الوساوس التي تنمو بسبب سوء ظنك به، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً — وهذا يذكرني قول البحتري

أدعُ الصاحب لا أعذله لا يُسمّى بعقوق فيُعَقّ

(١٦) ينبغي لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخرية أن يتذكر دائماً أن هذه القدرة

تبعث الشك وسوء الظن به ومقاصده حتى يجعل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخرية بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك وقد يذكر المرء قولاً بريئاً لا سخرية به فيحمل الناس معناه على ما يدر منه في أوقات أخرى من السخر (وهذا يذكرني قول لورد تشسترفيلد : ينبغي لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مصلتاً لها وأن يتخذها عدة للدفاع اذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة في نظر لورد يكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والاجلال .

(١٧) كل من كان في نفسه شيء يدعو الى احتقاره مُزَوَّدٌ بدافع نفسي يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذي يدعو الى الاعجاب أو بالظهور بين الناس اما بالفضل واما بالشر كي يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الاعجاب بفضله فكم من هاهة أو نقيصة في حياة المرء حَثَّتْ على العظمة أو على الاجرام . واذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد

(١٨) المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العريضة العظيمة النادرة لأن الحياة اليومية أحوج الى الأولى كما انها أحوج الى النقود القليلة القيمة في التعامل اليومي — ولأنها أقرب الى فهم جمهور الناس وأقل هدفاً للحسد .

(١٩) أكثر الناس تغاضباً الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدللون الذين هم أشبه بهؤلاء . ومن أجل ذلك ينبغي أن يستحي العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب فنّا أن الغضب من مظاهر العظمة وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله .

(٢٠) بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخَيَّل للناس فيهم من العقل . وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه . فلامح الوجه قد لا تدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة وبعض الناس له مهرة في إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت إنهم يعرفون

أكثر مما يريدون أن يقولوا وبعضهم يوهم ذلك باشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لا يتأمل ولا يفكر وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل — (وهذا يذكرني قول شيرر الناقد الفرنسي: ان بعض الناس كالمنازل الضيقة التي تكاد تكون لا عرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسي البارز فيحسب الرائي انها منازل كبيرة وهي صغيرة جداً).

(٢١) بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذي يريد أن يقنع الناس أنه غني كي يجد من يقرضه مالاً ليتلافى أمر إفلاسه وكي يعود الى الكسب والى الارتزاق. وهؤلاء اذا عنّ موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأي فيها.

(٢٢) قد يكون الرجل ذا ثروة محبًّا لنفسه ومع ذلك يكون في حاجة شديدة الى صديق فليست الحاجة الى المصادقة والمودّة من سلامة الطويّة وطيب القلب وإنما هي ضرورة كضرورة من يأخذ الدّواء كي يجري به المرارة في جسمه ويُدِرّها. وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم — ولعلّ هذا هو السبب في غيظ ذوي الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعلّه سبب من أسبابه — وبعض الناس لا تتم متعتهم بالسرور إلاّ بإعلانه لصديق أو جليس ولا يسهل تحملهم للشقاء إلاّ بالشكوى لمشير أو جليس أو صديق ومكاشفته وهذا يذكرني قول الشاعر العربي.

ولا بدّ من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

(٢٣) تزداد آراء المرء صحة ووضوحاً بالمحادثة لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خالياً بنفسه منفرداً. فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأي وتنقده ويستثنى من ذلك الحديث الذي لا يراد به هذا الأمر بل تراد به النجعة وتعطيل الفكر والمباهرة.

(٢٤) اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلاّ بمداواتهما. وقد قال تاسيتوس المؤرخ الروماني في وصف أمثال هذه البيئة المختلة:

بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون في أن يعمل غيرهم الشر وأكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم . فان رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور في نظامها وحياتها التي تحياها ولاسيما اذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كي يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم وإذا كثر فيها مثل هذه الأمة الذين يسرفون في الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهي أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرّت ظواهرها .

(٢٥) مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان فالذي يحاول منعها اذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذي يجعل جروحه تدمي في داخل جسمه بدل أن تدمي على ظاهره وعلى جلده فيعالجها وهي إذا دميت في داخل جسمه سببت التقيح والتسمم في بدنه وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولا يتنفس عنها بعض التنفس بالعمل أو القول أوالكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها .

(٢٦) إذا لم تجد النفس منفذاً الى النجاح والتبريز في الأمور العظيمة فلا تتنعش إلاّ بالنجاح والتبريز في الأمور الصغيرة وقلما تنتعش وتطمئن الى السكينة التامة الخالية من أي مظهر من مظاهر النجاح فانها حينئذٍ تنطوي على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ما تتلهى به مما يؤدي الى النجاح والتبريز في أي أمر من الأمور صغيرها وكبيرها .

(٢٧) أشد الناس إثرة وأنانية لا يتورعون من احراق مدينة كي يقلوا بيضة أي لا يتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة ومع ذلك لا يغتر الناس كما يغترون بذوي الاثرة والأنانية لأن مطالب اثرتهم والرغبة في الفوز بها قد تدعوهم الى ملاطفة الناس واسترضائهم فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس اليهم الناس ويثقون بهم وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه اثرتهم إلاّ اذا كان صاحب الاثرة أحمق لا يعرف كيف يستدني مأربها بملاطفة الناس واظهار غير ما يبطن .

(٢٨) خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم أما آراؤهم فحسب

ما تعلموا ولكن أعمال الناس حسب العادات التي تعودوها ومن أجل ذلك لا يصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لا يصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه في النفوس طباع متناقضة ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاَّ إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاَّ كان عمله ضد رأيه في بعض الأحايين فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأي أو عقيدة ويعطي المواثيق على أن يعمل وفقها ثمَّ لا يفعل بل يفعل ما تقتضيه عاداته فكأنما الانسان آلة مسيَّرة يديرها دولب العادة كما تدار الآلة في المصنع .

(٢٩) الانسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحاً عالماً فكأنه مدحٌ عقيم والانسان مزايا أقل ظهوراً من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثل هذا الانسان الذي نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة في سيرها أو عجلات الآلة ومثل هذا الرجل قلما يخطئه الناس أو يذمونه أو يسيئون له الظنية ومثل هذا لا يشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل بل قد يكون نقصه فيهما معيناً له على النجاح وبعكس ذلك تجد أناساً لا يستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا في القول والعمل .

(٣٠) المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل انسان بما يود ذلك الانسان أن يمدح به وبما يمدح به نفسه والشرير هو الذي يمدح انساناً بما يضره ويؤذيه واذا مدحت من كان في مثل فضلك أوجبت لنفسك المدح وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلا أنكر الناس فضلك بالقياس .

(٣١) بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذي يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادي انساناً أخفى وغيَّر اسمه فينادي باسمه على حين غفلة منه أو يعرض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة . وقد يصح رأي هذا الباحث الاَّ إذا كان جليسه هيوباً فيصدق فيه قول الطغرائي (إنَّ الهيوب مريب)

(٣٢) ينبغي للقاضي أن يذكر دائماً أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كي تكون أحبولة صيد وفخاخاً وشباكاً يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

(البحث بقية) ع . ش .

قصة

أسرف !...

للكاتب الفرنسي «جي دي موباسان»

ترجمة الآنسة : نعمت حسني

استيقظ السيد « سافال » ويسميه في (مانت) « الأب سافال » . . . من نومه في الصباح المبكر . ثم ارتدى جلباباً يستر به ثياب النوم . وكان اليوم من أيام الخريف الحزينة . . فقد أظلمت السماء وتهاطلت الأمطار . . وأخذت أوراق الشجر تتساقط على مهل . . وكأنها أمطار أخرى ، أكثر غزارة وأكثر تؤدة . ولم يكن السيد سافال ، مرحاً في ذلك اليوم .. فهو يقطع المسافة ، فيما بين النافذة والمدفأة ، ذهاباً وإياباً.

الحياة تتخللها أيام عابسة مظلمة . وسوف تكون من الآن فصاعداً ، سلسلة أيام مظلمة عند سافال .. فقد بلغ الثانية والستين من عمره ولم يتزوج بعد .. فهو فتى عجوز . . وليس من يحيط به ! يا لله ! محزن ولا شك ، أن يموت الإنسان هكذا ، وحيداً . . وليس من يحبه أو يحنو عليه !

وفكر سافال ، في حياته العارية الجوفاء التافهة . وتذكر الماضي القديم . . تذكر أيام طفولته ، والبيت الذي كان يضم الأسرة . . والمكتبة التي تعلم فيها . . . ثم التخرج فيها . . ودراسة القانون في باريس . ثم مرض أبيه ، الذي أعقبه الموت .

إنه أقام بعد ذلك مع والدته . . وعاش الاثنان معاً ، في هدوء وسكون . . الشاب والمرأة العجوز . . ولا يطلبان شيئاً من لذائذ الحياة ونعيمها ، غير ما قدر لهما . ولكن ماتت أمه أيضاً ، وتركته وحيداً . فكم هي حزينة هذه الحياة !

وهكذا عاش سافال وحيداً . والآن ، سوف يموت بدوره في وقت قريب . . سوف يختفي من هذا الوجود ، وتنتهي كل شيء . . فلا سيد برل سافال ، فوق وجه الأرض .

إنه حتماً ، لشيء بغيض ، إن أناساً آخرين ، سوف يعيشون بعد ذلك ، ويتحابون ، وسوف يضحكون ويلهون . . بينما هو ، لا يكون له وجود بالمرة . . . لعله عجيب ، إننا نضحك ونلهو ونمرح ، ونحن نعلم يقيناً ، إن الموت مصيرنا الأخير . لو كان هذا الموت أمراً يشك فيه ، لأمكن لنا أيضاً ، أن نأمل النجاة منه . . ولكن لا ، إنه شيء لا مفرّ منه . . كما انه لا مفرّ من أن يعقب الليل النهار .

* * *

لو أن حياته قد ملئت ! لو أنه أتى بعمل ما . . لو كانت له حوادث . لو أنه تذوّق حلاوة المسرات ، والنجاح . . والرضى بأنواعه . ولكن لا ، لاشيء من هذا كله ، إنه لم يصنع شيئاً ، لم يصنع شيئاً البتة ، سوى أنه يصحو من نومه ، ويأكل في ساعات محدّدة ثم تأتي ساعة النوم فينام . وواصل أيامه على هذه الطريقة ، الى الثانية والستين من عمره . . حتى ولم يكن قد تزوّج ، كبقية الرجال . ولماذا ؟ أجل ، لماذا لم يتزوج ؟ وقد كان في امكانه أن يتزوّج . . فهو يملك ثروة لا بأس بها . أهي الفرصة لم تواته ؟ ربما ! على إنه يمكن ايجاد هذه الفرص ! لقد كان كسولاً متهاوناً . . هذا كل ما في الأمر . كان الكسل مرضه العضال . وكان عيبه وفضيحته . كم من الناس خاب أملهم في الحياة ، بسبب تهاونهم هذا . . فهناك بعض الطبائع ، من الصعب عليها ، أن تنهض أو تتحرك ، من تلقاء نفسها . . أو تتكلم ، أو تسلك بعض المسالك ، أو تدرس المسائل ، أو تريد شيئاً ، بغير حاجة الى الآخرين !

يالله ! بل ولم يكن سافلاً ، محبوباً . فما من امرأة واحدة ، ألقت برأسها على صدره في غمرة من الغرام ، ولم يعرف عذب الانتظار اللذيذ . . وتلك الرعشة السماوية ، التي تنشأ عن ضغطة يد الحبيب . . ثم ذهول الغرام الطاهر ، الذي يطغى على كيان المحب !

إنها لاريب سعادة فوق احتمال الانسان . . تلك التي تغمر القلب ، عند ما تتقابل الشفاه للمرة الاولى . . بينما تكون الأذرع الأربعة ، قد ضمت بين كائنين ، وقد جنّ أحدهما بالآخر غراماً وجعلت منهما كائناً واحداً . . كائناً سعيداً ، في منتهى السعادة .

ألسن الشعراء بالقول ، يذكرون بلاء قومهم وبلاءهم ، ويُنذرون على خصومهم كبواتهم ، ويذكرون قتلاهم فيندبونهم ، ويتوعدون بالثأر قاتليهم .

وكاد الشعر أن يكوّن لنا سجلاً مسطوراً يضم حديث الحرب وما دار فيها .

* * *

أظلت سحابة هذه الحروب النابغة ، وكان معها ، إن صحّ تقدير المؤرخين ، في الأربعين أو دونها بقليل [1] .

ففي العام الثامن والستين بعد الخمسمائة ، بدأت حرب داحس . ويقدر أبو الفرج الأصبهاني عمرها بأربعين سنة . ويكادون يتفقون على أن النابغة عاش الى الرابعة بعد المائة ، وأنه مات هرماً بعد أن وخطه الشيب . ويروون له مرثية رثى بها النعمان بن الحارث الغساني ، وكان قتل في غزاة له سنة ستمائة ، تشير الى شيبه ، فوق ما تشير الى حياته الى تلك الأيام ، وفيها يقول النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازلُ وكيف تصابي المرء والشيبُ شامل

هذا جانب من الحياة التي أحتوت النابغة ، عاش قومه فيها في شكّتهم وعلى ظهور خيلهم نتركه الى حين ، حتى نقفو خطوات شاعرنا من مهده الى لحده ، ونحصي عليه حركاته ثم كلماته .

* * *

نشأ النابغة في نجد ، في الذروة الحمراء والركن الأشد عند نفر ، أو في الوسط من قومه كما يذهب الى ذلك نفر .

ولا تحفظ لنا الآثار من شبابه غير حديثه مع حاتم الطائي من أجل ماوية . وبعد هذا يأتي الحديث عن النابغة بين المناذرة ملوك الحيرة ، وبين الغساسنة ملوك الشام .

فأول ملوك الحيريين ، فيما يروون ، مالك بن فهم بن دوس ، وكان سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقيا . فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق .

---

(1) De Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes.

وملك بعده ابنه جذيمة، من مشارف الشام الى الفرات . ثم بعد جذيمة ابن أخته عمرو ابن عديّ بن نصر بن ربيعة . وكان أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلاً ومقر ملك ، وبعد جذيمة كان امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ، ثم عمرو بن مرىء القيس ، وهو محرق العرب . ثم النعمان بن امرىء القيس .

ثم ملك المنذر بن النعمان ، وأمه ماء السماء بنت عوف ، سميت كذلك لحسنها وجمالها . وهو فارس يوم حليمة ، يوم المناذرة والغساسنة (سنة ٥٥٤) . ويذهب بعض الرواة الى أن النابغة اتصل به ، وان ذلك قبل مقتله يوم حليمة .

وبعد المنذر ابنه عمرو ، ثم قابوس بن المنذر . ثم ملك النعمان بن المنذر . وحكم ، فيما يقال ، اثنتين وعشرين سنة . وهو الذي قال فيه النابغة فأكثر .

ثم كانت نكبة الحيريين على يد كسرى أبرويز ، وذلك بدس زيد بن عديّ عليهم عند كسرى ، وكان عديّ ينقم على النعمان قتله أباه زيداً .

* * *

أما عن الغساسنة فكان أول من ملك منهم بالشام الحارث بن عمرو بن عامر . ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر . وأمه مارية ذات القرطين .

ثم عمرو بن الحارث . وكان النابغة فرّ إليه هرباً من النعمان أبي قابوس ، وقال فيه بائيته المشهورة:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ومنها : عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم كانت صلته بأخيه النعمان بن الحارث بعد وفاة عمرو سنة ٥٩٧ . فيما يحكون .

وكان النعمان هذا — ويكنى أبا كرب وأبا حجر — غزّاء ، لا يغفر للبدو أن يعيشوا في أرضه ، وكان الى هذا فارساً مرهوباً .

وفي نحو سنة ٦٠٠ لقي النعمان حتفه في خرجة من خرجاته ، والناس بين مصدق ومكذب . فرثاه النابغة بلاميته :

وقفتُ بربع الدار قد غيّر البلى معارفها ، والداريّاتُ الهواطلُ

أسائل عن سُعدى وقد مرَّ بعدنا — سنون عرَصات الدار تَسْفع كواملُ

ومنها :

ورَبَّ بني البرشاء ذهل وقيسها وشيبان حين استبهلتها المناهل

(البرشاء : أم ذهل وقيس وشيبان ، أبناء ثعلبة . واستبهلتها المناهل : أي نفرت بها مهلة لا تكلم لسانها عليها)

لقد عالني ما سرَّها وتقطَّعت لوعاتها مني القُوى والوسائلُ

(عالني : حزني . وسرها : السر لبني البرشاء)

فلا يهنئ الأعداء مصرعُ ملكهم وما عَشَّشت منه تميمٌ ووائل

(عشّشت : نجت)

ومنها :

فإن تك قد ودَّعتَ غيرَ مذمَّم أواسيَ مُلك ثبَّتته الأوائل

فلا تبعدنْ إنَّ المنيـة موعدٌ وكُل امرىء يوماً به الحال زائل

فما كان بين الخير لو جاء سالماً أبو حُجُر إلاَّ ليالٍ قلائل

واتصل النابغة بعد النعمان بن الحارث بحُجر . غير أنه لم يستطب المقام ، ورأى أن يعود أدراجه الى النعمان بن المنذر .

وهنا يختلف المحدثون . فيذكر ابن قتيبة أن ذلك كان عن دعوة من النعمان ، سعى تأمين وغفران . ويعزو ابو الفرج ذلك الى إشفاق النابغة على النعمان حين انتهى إليه أنه مريض ، وكان يحبه . ويذهب أبو عبيدة إلى رأي أخير يظنه ، هو حنين النابغة إلى عطايا النعمان وعصافيره . وما كان ليخشى بطشه ومن ورائه عشيرته لا تسلمه ولا تخذله .

*

ترك النابغة الشام والغسانة وقصد النعمان بالحيرة ، فأمنه وأدناه إليه واستنشده ووصله ولكن أيامه مع النعمان لم تطل . فقد قدمنا لك شيئاً عن نكبة النعمان على يد كسرى ، فلحق النابغة بقومه ، وعاد الى نجد مهده الأول متمثلاً بهذه الأبيات :

مَن يطلب الدهرُ تدركه مخالبُه والدَّهر بالوتر ناجٍ غيرُ مطلوبِ

ما من أناس ذوي مَجد ومَكرُمة إلاَّ يشُد عليهم شدةَ الذيب

حتى يُبيد على عمد سراتَهمُ بالنافذات من النَّبل المصايب

بقي شيء يمت الى ذوق النابغة الشعري، وبصره بنواحي القوة والضعف من الشعر، ذوقه لا لتلك الصلة ، بل لدلالة أخرى تكشف لنا عن محل النابغة و بين الناس، ولاسيما بين أضرابه من الشعراء ، ذلك أنه كان محكماً في سوق عكاظ ، تضرب له قبة من أدم ، وينشده الشعراء ، وله فيهم كلمة القاضي وفصل المسوّد .

وتلك منزلة يفيد منها النابغة لو شاء كثيراً ، وفرقٌ بين ما يصدر عن المحل الأرفع والمحل الأدنى ، وبين كلام المسدَّدين وكلام المسدِّدين ، وإنك لتدرك أثر ما تقول وأنت إمام، ثم وأنت من العوام .

هذا ما نريد أن نضمه الى حياة النابغة، فلنا منه سبب من أسباب الفصل في أمر النابغة.

* * *

هذا هو عصر النابغة : حرب داحس والغبراء التي عاشت معه من اكتماله ، ثم خلّفها مشبوبة مستعرة الى رمسه ؛ الى حُرَيبات لاتعدو أن تكون عراكَ أيام بين قبيله والقبائل المجاورة ، منها ما كان من إغارة لقومه في أحلافهم من بني أسد على أرض الغساسنة ، بعد وقعة عين أباغ ، التي هزم فيها المنذر الغساني قابوساً ، وبقيت المناوشة بعدها بين الغساسنة والمناذرة في غير هدأة ،وغنمت القبائل المحيطة الفرصة فأغارت هنا وهناك لتغنم ما تقوى على سلبه من هاتين الدولتين المشغولتين ؛ ومنها تربُّص الذبيانيين قومه مع بني أسد وبني تميم المرابَع الخصبة من أرض النعمان الغساني وسوقهم ما تتع عليه عيونهم من نعم وماشية أمامهم ؛ وما كان يتبع ذلك من مهضة المنذر ثم النعمان لتأديبهم والنيل منهم .

والرواة لا يذكرون بيتاً واحداً للنابغة في حرب داحس والغبراء ، على حين عني بها زهير بن أبي سلمة وخصها بمعلقته .

والنابغة وان لم يفعل هذه فقد فعل غيرها ، تنطق بمشاركته واتصاله بعشيرته . من ذلك جهده في أن يحفظ لقومه حلفهم مع بني أسد وبني تميم ليشتد بذلك أزرهم ، ويقووا على حرب العبسيين وأحلافهم من بني عامر ، وأنه لهذا وصل حبله بحبل الغساسنة فشفع فيهم لدى الحارث الغساني ، وكان أسر منهم جمعاً كانوا مع حليفهم المنذر .

ثم قيامه للعبسيين والعامريين الذين حاولوا جاهدين فصم هذه العروة ، مناطحاً يهجو

أعداءه مرة ويمدح محالفي قومه أخرى . نرى شيئاً من هذا في قول النابغة يهجو بني عبس
عيينة في إبعاد أسد عن ذبيان ، ويمدح بني أسد :

أَلِكْنِي يا عيينُ اليك قولاً ... سأُهديه اليك ، إليك عني
فوالي كالسَّلام إذا استمرت ... فليس يَرد مذهبها التظني

(السلام : الحجارة)

بنو أُدين مَن يبغي أذاتي ... مُداينةَ الدِّراهِمِ فَليدِنّي
أَتخذل ناصري وتُمِرُّ عبساً ... أيربوع بن غيظٍ المِمِنّ

(ايربوع بن غيظ رجل من أحلاف النابغة . والمن : الذي يتمرض لا يعنيه ، يريد : عيينة ، واللام فيه للاستغاثة)

كأنك من رِجال بني أُقَيش ... يُقعقِعُ خلف رِجليه بشَنِّ

(الشن : القربة اليابسة)

تكون لعامة طوراً وطوراً ... هويّ الريح تَنسج كُل فَنِّ

(لعامة : الحق والجهل . وطوراً خدعة كالريح تنسج فنوناً من الخدع)

تَمَنَّ بعادهم واستبق منهم ... فإنك سوف تتركُ والتمني
إذا حاولت في أسد فجُوراً ... فإني لستُ منك ولستَ مني
فهم درّعي التي استلأمتُ فيها ... الى يوم اللِّقاء وهم مجنّي

(اللقاء : يوم كان لاسد بن عمرو ، من تميم ، على هوازن) .

وهم وردوا الجِفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عُكاظ إني

(الجفار : ماء لبني تميم بنجد ، كانت عنده وقعة بين تميم وبكر) .

شهدتُ لهم مواطن صادقاتٍ ... أتيتُهم بوُدِّ الصَّدرِ مني
وهم ساروا الحُمَيْر في تَحَيس ... وكانوا يوم ذلك عند ظني

(حمير ، هو أبو امرىء القيس)

إلى أن قال :

ولو أني أطعتُك في أمور ... فرعتُ ندامةً من ذاك سني

ثم تعالَ الى قوله يُسفِّه رأي زُرعة بن عمرو ، وكان لقي النابغة في عكاظ وطلب إليه

ناصحاً أن يشير على قومه أن ينقضوا يدهم من حلف بني أسد . ولما لم يستمع إليه النابغة توعده زرعة . فقال النابغة يرد عليه إيعاده ، ويذكر بالمثل حلفاءه :

لُبثت زرعة والسفاهة كهمها يُهدي إليَّ غرائب الأشعار
خلفتُ يا زُرع بن عمرو أنني مما يشق على العدوّ ضراري

(ضراري ، أي ذوي منهم وطاق بهم)

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت العَجاج فانشقت غُباري
إنّا اقتسمنا خُطّتَينا بيننا فحملتُ برّة واحتملتَ فجار
فلتأتينّك قصائد وليدفعن جيش إليك قوادمَ الأكوار

(يتوعده بالغزوة)

وهطا ابن كوز مُحقبي أدراعهم فيهم ورهطُ ربيعة بن حُذار

(ابن كوز ، من بني مالك بن ثعلبة . محقبي أدراعهم ، أي جاعليها كالحقائب ممدة ، وربيعة بن حذار ، من بني سعد)

ورهط حرّاب وقدٍ سورةٌ في المجد ليس غُرابها بُعطار

(حراب وقد : رجلان من أسد . ليس غرابها بعطار ، أي إن فيها ما يمسك الغربان عن أن تنصرف عنها ، لأن طعامهم في أعدائهم فالغربان في ركابهم لانتظارهم لوقعة ما تطعمه من جثث القتلى)

وبنو قُعين لا محالة أنهم آتوك غيرَ مقلّمي الأظفار

(بنو قعين : من بني أسد)

سَهكين من صدأ الحديد كأنهم تحت السُّنَوّر جنةُ البقّار

(سهكين : بهم رائحة صدأ الحديد لطول لبسهم الدروع . والسنور : السلاح التام . والبقار : موضع زعمت العرب أنه كثير الجن)

والفاضريون الذين تحمّلوا بلوائهم سيراً لدار قرار

(الفاضريون : من بني فاضرة بن مالك ، من أسد . ولدار قرار ، أي الثبات لا للهرب)

تمشي بهم أُدُم كأنّ رحالها عَلَق هُريق على مُتُون صُوّار

(الأدم : الابل العتاق . والعلق : الدم . والصوار : القطيع من بقر الوحش)

جمعاً يظلّ به الفضاء معضّلاً يدع الإكامَ كأنهنّ صحاري

حولي بنو دودان لا يعصونني وبنو بغيض كلهم أنصاري

(بنو دودان : من أسد . وبنو بغيض ، يريد بني ذبيان) .

* * *

فأنت ترى في هذا القدر ما يغنيك عن غيره ، ويدلك على أن النابغة لم يبعد عن حرب داحس والغبراء ، وأنه عاش لجانب منها رأى في حفظه حفظاً لدعامة قوية وسند شديد يكفلان لقومه الوقوف في وجوه عبس . فنصب نفسه للذود عن هذا الحلف ، ووقف يرد على المقرضين ، ويفند مزاعم المبطلين ، وراح يشفع لأسرائهم لدى الغساسنة حين وجد الفرصة لذلك مواتية .

ونريد أن نقول : إن رحلته إلى الشام لم يكن هذا مبعثها ، فقد عرفت مما سقنا إليك بواعثها . ولكن حَسَب الرجل أنه لم ينس إلى حظه حظًّا أسمى وأشرف لآله وعشيرته ، فأدَّاه على وجهه ، لم يدَّخر وسعاً ولم يألُ جهداً .

يُحكى أنه ركب إلى الحارث بن أبي شمر في شأن أسرى بني أسد وبني فزارة . فأجابه الحارث إلى ما طلب وخلى عنهم .

وكان حصن بن حذيفة الفزاري أصاب في غسان قبل ذلك بعام . فقال الحارث للنابغة : ما رمى بني أسد إلا حصن ، وقد بلغني أنه لا يزال يجمع علينا الجموع . فقال له النابغة : أبيت اللعن ! إن الذي بلغك باطل . وقال في ذلك :

إني كأني لدى النعمان خبَّره بعضُ الوُدِّ حديثاً غير مكذوبِ
بأن حصناً وحيًّا من بني أسد قاموا فقالوا حِمانا غير مقروب
ضلَّت حلومُهم عنهم وغرَّهمُ سَنُّ المُعيدي في رَعْني ولم يَزِبِ

(السن : حسن القيام على الذل والماشية . والمعيدي ، مصغر منسوب إلى معد . والشزب : أن تكون الابل في المرعى لا ترجع إلى أهلها)

إلى أن قال : وما بحصن نُعاس إذ تؤرِّقه أصوات حيٍّ على الأمرار محروبِ

(الامرار : مياه في بلاد بني أسد . والمحروب : الذي سلب ماله) .

ظلت أقاطيع أنعام مؤبَّلة لدى صَليب على الزوراء منصوبِ

فإذ وُقيت بحمد الله شرَّها ... فانجي فزارَ الى الأطواد فالذوبِ
ولا تلاقي كما لاقت بنو أسد ... فقد أصابتهمُ منها بشؤبوب
لم يبق غيرُ طريد غير منفلت ... ومُوثَق في حبال القدِّ مسلوب
أو حُرَّة كهاة الرمل قد كُبلت ... فوق المعاصم منها والمراقيب
تدعو قسيماً وقد عضَّ الحديد بها ... عضَّ الشَّقاف على صُمِّ الأنابيب

(قسيم : عبد بن أسد)

مستبشرين قد آلَمُوا في ديارهمُ ... دُعاء سُوع وذُعميّ وأيوب

(سوع وذعمي وأيوب : من غسان)

هذا بلاء النابغة عن قومه في هذه ، ولا يضيره أنه لم يسلك فيها مسلك زهير ، فلكل مذهبه في الحياة . فلئن النابغة كان يرى أن ينتصف قومه من أعدائه بالسيف ، فذهب يعينهم وينفخ في روح أحلافهم ، ويحيط ذلك بسياج تألفت حلقاته من : (١) رده مزاعم الخصوم (٢) وسعيه في الشفاعة عنهم لدى الملوك (٣) والإشادة بمآثرهم وتعداد مناقبهم .

على حين رأى زهير أن في الصلح حقناً للدماء وكبتاً للغزوات .

فالنابغة صاحب رأي لا يزال عليه الكثير . وان الضربة القاضية تضمن في ظلها سلماً ، وإن كان مصنوعاً ، دهراً طويلاً . وزهير صاحب رأي يؤمن به من على حكمته وفلسفته ، وأن الصلح إذا أقيم على دعائم من الرضى المتبادل ، والصفاء المشترك ، كتب للسلم البقاء الى الأبد .

ذاك عندي هو الذي جعل الرجلين كلاًّ الى سبيل . وما أظن النابغة على تقصير حين لم يلج موالج زهير ويذهب مذهبه . هذا وقد رأينا له في هذا الميدان كلمات ، ولكنها من لون آخر

وقد تكون تلك الصلة التي مكنت النابغة في بلاط الملوك ، وما ورثه عن آله من نزوع الى البطش ، هما اللذان طبعاه بهذا الطابع .

إذ مع الملوك انطمع في العون . ومن تلك الطبيعة الموروثة ما يقوّي هذا الطمع ويزكيه

غير أنهم قالوا إن النابغة دان للملاط الغساني بأكثر مما دان به لقومه . وحكوا أن النعمان بن الحارث حمى « ذا أثر » فاحتماه الناس وتربعته بنو ذبيان ، فحذرهم النابغة بطش الملك . فعيروه خوفه النعمان . وقالوا وعديد معناه . فقال النابغة :

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر ... وعن تربعهم في كل أصفار
وقلت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه لوثبة الضاري
إما عصيت فإني غير منقلت ... مني الثعالب لجبا حرة النار

(الثعالب : جمع ثعلب . وهو الثلب الدبق من الجبل . وحرة النار : لبنى مرة)

وعيرتني بنو ذبيان خشيته ... وهل علي بأن أخشاك من عار

وفي هذا الاتهام غلو وإسراف . فالرجل حريص على أن تجري الأمور هوناً ، وعلى ألا يمتحن قومه بالغاشمة ، فيضموا الى أعدائهم عدواً أشد وأنكى ، والأمر ليس معه ما يضير .

ذلك رأي يعضده ما كان من النابغة مع النعمان حين أراد أن يغزو بني حصن بن حزام من حلفاء بني ذبيان ، فنهاه النابغة وحذره المغبة ، فأبى عليه . فأرسل النابغة يخبر قومه ويطلب إليهم أن يعينوا بني حصن ويمدوهم . ففعلوا وهزموا غسان . وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته ... يريد بني حصن بمرقة صادر
تجنب بني حصن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تأتهم إلا بصابر
هم منعوا وادي القرى من عدوهم ... بجمع مثير للعدو الكاثر

فالنابغة ليس عندما رموه به ، ولكنه يريد لأهله الأمن فيما لا ضير عليهم فيه ، حتى اذا ما رأى الخطب يلم بساحتهم كان لهم نعم الرأي والمشير .

غير أنه من الحق أن نذكر أن هذه الصلة — أي صلة النابغة بهذا البلاط وذاك — كانت لشيء غير ما تحدثنا فيه .

فالنابغة — كما يقولون — أول من كسب بالشعر ، وأنه ذاق طعم العطايا والمنح ، ورأى مقامه في البلاطين ، مشفعاً مجاباً على حد قوله :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أشفع في أموالهم وأقرب

فزاده هذا وذاك حرصاً على حرص في التمسك بأهداب هذا اللون من الحياة

وقد سلك من أجل هذا المزيد من الحرص غيرَ المألوف ، فلم يأمن بعض العثرات .

فأسرف النابغة في مديحه ، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه . تحس شيئاً من هذا في مثل قوله :

فتلك تُبلغني النعمان إنّ له ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد
ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه ... ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلاّ سليمانَ إذ قال الإلـه له ... قُم في البرية فاحدُدْها عن الفَسَد
وخيِّس الجنَّ إني قد أذنتُ لهم ... يبنون تدمر بالصُّفّاح والعمد
فمن أطاعك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادلُله على الرُّشد
ومن عصاك فعاقبْه مُعاقبة ... تنهى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَد

(الضمد : الحقد والغيظ)

وأسرف في الاعتذار، لمكان هذا الإسراف في الحرص من نفسه ، وذلك كما في قوله :

أُنبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد
مهلاً فداء لك الأقوام كلهم ... وما أُثمِّر من مالٍ ومن وَلَد

وكشف عن طمعه في الأصفاد وتحرّقه للعطايا في مثل قوله :

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً ... فلم أُعرِّض أبيت اللعن بالصفد

لذا انزلق النابغة ولم يمسك عليه لسانه فيصرّفه فيما يحفظ له ما يريد مع أنفة لا تقطع الصلة ، ورفعة لا تسد عليه باب المطلب .

ولكنه الحرص يذلّ أعناق الرجال . هذا ما نؤمن به ولا يرجعنا عنه ما يُعتذر به من أن الإسراف في المدح كان لإسراف الممدوح في البذل ، وأن الإسراف في الاعتذار كان لإسراف النابغة في الوفاء ، وأنه لو سكت على ما رُمي به عند النعمان مما قُذف به في شأن « المتجردة » كان هذا منه تسليماً بما قيل ، ثم إن من ورائه أعداء شامتين ، والشماتة تقضّ المضاجع ، وتحمّل المشموت به القوادح ؛ وان الالماع الى العطية كانت تتمة لشكر أيادي المعطي عنده .

قد يكون لهذه شيء ولكنه لا يدفع كل شيء . ولو أن شاعرنا خلّص نفسه من هذه الشوائب لاستقامت له رسالته واضحة ، وما وجد بعضُ قومه الى النّيل منه سبيلاً . ولفرّغ جهده كله للواجب الذي حمله على عاتقه . ولكنهما المال والجاه وما النفس بغالبة سلطانهما إلاّ على جهد ومعاناة : وهي إن غلبت ملكت مقود الجاه والعزة ، ولكن من سبيل لا ضيرَ معها عليها .

فهذا اللسان النابغي ، والحصف الذي عرفته عكاظ ، كانا يضمنان لربهما رسالةً خالصة لا تشوبها هنات ولا يلحقها لوم . ولوجد الآذان أدنى الى الأخذ عنه ، والقلوب أدعى لما يقول .

فآفة الإصلاح أن يُسيء بالناهضين به الظنون ، وتعلق بأردانهم الريب ، هنالك تلقى الآذان صمًّا ، والقلوب غُلفاً ، والجموع الى انفضاض ، والدعوة الى زوال .

زهير بن أبي سلمى

في تلك المنقبة الصاخبة ، وبين الفتن الآشبة ، والمعارك الناشبة ، عاش زهير . فقد أدرك عصر النابغة ، ومرَّ بك حديثُه ، فَصلِيه زهير، ولم يكن منه ببعيد . فالنابغة قضى في نحو سنة ٦٠٤ ولعله بنحو سبع سنين ثوى زهير .

وفي غطفان ، قبيل النابغة ، نشأ زهير ، فكان منهم أخواله وأخوال أبيه . فصلته بهم قديمة . أقام بينهم أبوه من قبله ، وغزا معهم طيئاً ، وعادوا عنهم بنعَم وأموال لم يخمّسوه منها بشيء ، ففي عنهم بأمّه إلى قبيلة مزينة . ثم عاد مع مُزينة حين غزوا بغطفان ، ولكنه ما لبث أن انفصل عنهم ، واستقرَّ به المقام في ربوع غطفان .

وفي حجر بَشامة بن عمرو الغطفاني شبَّ زهير . فكفله هذا الخال ، بعد أن خلفه أبوه صغيراً .

وأصهر زهير إلى غطفان واتصلت أسبابه بأسبابهم ، وكاد بعضهم يعدُّه في غطفان ، كما كادت عروته بأذينة تنفصم لولا باقية من نسب كانت لا تزال تذكره بآبائه .

عرف زهير لغطفان أكثر مما عرف مزينة . ففي ديارهم شبَّ وترعرع ، وفي ثراه خاله بشامة تقلب ، وبلسانه تأدَّب .

تلمح ذلك العرفان الجميل في قوله لبني تميم ، وبلغه عنهم أنهم يريدون غزو غطفان :

ألا أبلغ لديك بني تميم وقد يأتيك بالنبأ الظنونُ

(الظنون : الذي لا يوثق بما عنده ولا يكاد يصدق في خبر)

بأن بيوتنا بمحل حَجْر بكل قَرارة منها تكون

(حجر : في شق الحجاز . والقرارة : مستقر الماء في الوادي)

الى قلهى تكون الدار منّا إلى أكناف دومة فالحَجُون

(قلهى : موضع . والحجون : موضع بمكة . ودومة : موضع)

بأودية أسافلهنّ رَوْضٌ وأعلاها إذا خفنا حُصُونُ
تَحلُّ سهولَها فإذا نزعنا جرى منهنّ بالآصال عُونُ

(عون : أي خيل)

بكل طِوالة وأقبّ نَهْدٍ مَراكُلُها من التّعداء جُونُ

(الأقب : الضامر البطن . والنهد : الضخم . والتعداء : العدو والمراكل : حيث يركل الفارس برجله . وجون : سود من الفرق والضرب بالرجل)

إلى أن قال :

فخُلِّي في ديارك إنّ قوماً متى يدعوا ديارهمُ يهونُوا

كما تنبيّنه في قوله لبني سليم ، وبلغه عنهم ما بلغه عن بني تميم :

رأيت بني آل امرىء القيس أصفقوا علينا وقالوا إننا نحن أكثرُ

(أصفقوا علينا : ابتمعوا علينا . وبنو امرىء القيس : هوازن وسليم)

سُلَيم بن منصور وأفناه عامر وسعد بن بكر والنّصور وأعصُرُ

(النصور : بنو نصر من هوازن . وسعد بن بكر ، من هوازن . وأعصر ، أبو غني وباهلة)

خذوا حظّكم يا آل عكرم واذكروا أواصرنا والرُّحْم بالغيب تُذكر
وإنا وإياكم إلى ما نرومكم لكلان أو أنّم الى الصلح أفقرُ
إذا ما التقينا صارخاً معجتٌ بنا إلى صوته وُرق المراكل ضمّرُ

(معجت : صيحت مرّة سهلا . وورق : جمع أورق ، وهو ما كان لونه لون الرماد)

على رِسْلكم إنا سُعدي وراءكم فتسمعكم أرماحنا أو ستُسْدر

(ستسدر . بني الرماح ، أي سيكون منها ما تعذرون فيه)

وإلاّ فإنا بالنريّة فالُلوى نُعقّر أمّات الرِّباع ونَيْسر

(نيسر ، من اليسر والضرب بالقداح)

* * *

ويكاد يلفتنا هذا عن أن نُبصرك بالعصر وزجي لك عنه طرفاً ، بل يكاد هذا الحديث يكون مدخلنا الى ما نريد . ففيه الدليل على تحفّز موصول ، وأهبة لا تزول ،

لم يُغمد معها للقوم سيف، ولم تُعقد لهم حبوة، ولم تُلق عنهم شكة.

والى داحس والغبراء، أم الأربعين، كانت غارات هنا وهناك بين قبائل وشعوب، ومع هذه وتلك شاع ما يشيع عادة مع الحروب من تحوّل وتحدُّر، وظهر العابثون العائثون فاستُبيحت حُرمات، واستدت الأيدي للنهب، وأكثر الناس الفسادفي الأرض، حين وجدوا الفرصة مواتية، والسلطان عنهم في شغل.

* * *

ذاك عصر ينشئه أحد شاعرين: شاعر يحمل تمساً تُبست من تلك النار المستعرة، له هنا ذحل وهناك ثأر، يرى الحُكم للسيف، والعزة في أن تُكتب الغلبة لقومه؛ فهو للحرب يذكي أوارها، وينفخ في كيرها، ويُسعر عليها. وكذلك كان النابغة؛ وكان من قومه في الوسط والشرف، فيه مثلُ أنفتهم، وله كحميّتهم، ويودّ بمجدع الأنف أن يُكتب لهم النصر، ومعه عزّ الأبد. فعاش لذلك، على ما بسطنا لك قبلُ في حياته.

وشاعر أقذته المنافرات، وفزّعته المشاحنات، وبلبلت حسه الخصومات، وحزنه ما آب اليه الناس وما انحطت اليه الصلات، ولم يكن له الى ذلك قصدٌ الى الثأر، ولا هو من غواة الحرب ودعاتها.

وكذلك كان زهير. بل كان فوق هذا ليس من غطفان بالمحل الذي كان به النابغة. فهذا دمٌ مُزري في وعاء غطفاني، والنابغة من غطفان دماً ووعاء.

فزهير حين تراه لا يجنح للحرب، فرجع الأمر في ذلك الى تلك النشأة التي أبعدته عن أهله فعاش في غطفان بهواه، وقلبُه مع مزينة.

وغطفان، وإن أزلته بينها بالمحل المُكرم، فهي لم تنسَ مُزنيّته، ولستُ أدلّك على غير ما ذكرتُ لك قبلُ مثلاً، من حرمان غطفان أبا سلمى حقّه، فيما غنمه معهم من طيء.

هذه كانت صلة زهير بغطفان، ولم تكن مزينة بالجاه المسموع والصوت البعيد. ولم يَشغلها ما شغل غطفان، ولم تعش لما عاشت له.

أتاحت تلك الحياة لعقل زهير أن يهدأ، وضارّه ما يضار كلّ حكيم يَشهد ما شهد

من فوضى واضطراب ، فيرجو للناس أمناً وسلاماً ، ترجع فيه الأمور إلى وازع نفسي يهديهم ، وحاكم يسوسهم وينهاهم .

أجل ، رُزق زهير هذه النفس العفة ، ومالت به الأيام هذا الميل ، وعرف أن هنالك خيراً يُستحبُّ ، وشراً يُجتنب .

عجا مرة آل حصن بقصيدته التي يقول فيها :

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقومٌ آل حِصْن أم نساء
فإن تكن النساء مُخَبَّآتٍ ... فحُقَّ لكل مُحْصنةٍ هِداء

(أي إن قالوا إبن النساء الخبآت في الخدور فينبغي أن يزوجن إذاً)

ثم عرف بعد أنه لم يكن منصفاً حين فعل . فكان يقول : ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلا خشيت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم .

وغاضبته زوجه فأخذ يعاتبها في أسلوب الناصح ، ويبصّرها ببواطن الأمور في رفق الفيلسوف ، وهوادة الحكيم :

فيم لحَتْ إنَّ لومَها ذُعُرُ ... أحمَيتِ لوماً كأنه الأبَرُ
حتى إذا أدخلت ملامتها ... من تحت جلدي ولا يُرى أثر
قلت لها يا أُمَّ بعض أفضل لك في ... أشياء عندي من علمها خبر
قد يُقبل المال بعد حين على المـ ... ـرء وحيناً لهُ لكه دبُر
والمال ما خوّل الإله فلا ... بُدّ له أن يحوزه قَدَر
والجَدّ من خير ما أعانك أو ... صُلْت به والجدود تُستطر
قد يقتني المرء بعد عَيْلته ... تعيل بعد الغنى وتجتبر

(يقتني : يجمع ؛ وتجتبر : يستغني) .

والإثمُ من شر ما يُصال به ... والبرُّ كالغيث ثبتُه أمرُ

(أمر : كثير) .

قد أشهد الشارب المذلَّل لا ... معروفه مُنكر ولا حَبِير
في فتية لبِّني المآزر لا ... يَنْسون أحلامهم إذا سكروا

يشوون للضيف والعفاة ويو فرن قصاه إذا هم نذروا

*

ومثل هذا من ضبط النفس ولزوم جانب الحلم يقول لها :

وقالت أم كعب لا تزرنا فلا والله ما لك من مزار
رأيتك عبتني وصددت عني فكيف رأيت عرضي واصطباري
فلم أفسد بنيك ولم أقربّ إليك من للفتيات الكبار
أقيمي أم كعب واستقري فإنك ما نزلت بها بدار

ولا ننس أن زهيراً نزا السّوءة أو النّزوتين ، عدا فيهما طوره ، وفارق المعروف من أمره . ذلك لما لم يتبيّن نهجه ، ولم يعرُج إليه عرجه. من ذلك قوله يهجو عوف بن شماس :

من يتجرّم لي المناطق ظالماً فيجُرّ إلى شأوٍ بعيدٍ ويتبع

(يتجرم : يجني . والمناطق ، أي ثقاف اللسان) .

يكن كالحُباري إن أُصيبت قتلها أُصيب وإن تُفلت من الصّقر تلحِ
كعوف بن شمّاس يُرشّح شعرَه إليّ أرِدّي يا مَنيّ وأسجحي

(يرشح : يهيء . وأردي ، من الرداد . وأسجحي : ارفقي)

*

وكقوله، وقد أغلظ على الحارث بن ورقاء الصيداوي ، حين عدا في بني صيداء واستاقوا إبلاً لزهير ومعها غلامه يسار :

تعلّم أنّ شرّ الناس حيٌّ ينادي في شعارهمُ يسارُ

(الشعار : اللاذة . يريد أن يسارة صار علماً عليهم يعرفون به)

ولولا عصبُه لرددتموه وشر منيحة أبرٌ مُعار

(عصبه : نكاحه . والمنيحة : الناقة ، ومعار ، من العارية) .

إذا جمعت لئامُكم إليه أشطّ كأنه عبدٌ مُغار

(جمعت : مالت . أشط : أبعد . والعبد : الجبل ، والمغار : للفتول) .

*

قال زهير في بني صيداء ، غير هذا ، وكان محروباً لا يملك غير لسان يخوّف به وينذر. وأودّ ألاّ تفوتني الإشارة إلى شيء سبق فيه القولُ ، وهو أن زهيراً لم يجد غطفان له ، فيما يحزّبه من أمر ، كما لم تجد غطفان زهيراً منها تفرض له عليها ما يُفرض لغطفاني ،

وقدّمت لذلك مثلاً ماكان منها لأبي سُلمى . وأحب أن أضم إلى سابق لاحقاً فألفتك إلى حديث زهير مع بني الصيداء ، وإغفال غطفان أمره ، وأن زهيراً أحسّ هذا الجمل المردّ إلى شعره بمحمد النبيل من عدوّه ، غير راجع في ذلك الى عشيرته من خلصه يلوّح بهم ، ويخوّف بهم له .

* * *

كان لزاماً على زهير أن يهيء الناس للسلم ، ويمكّن للفضيلة في نفوسهم ، ويجعل للخير طريقه الى قلوبهم . فقد عرف مع القوة الغدر ، ولن تبعث الحربُ إلاّ حرباً . ورأى أبناء ظُلم حقه ، ولو قد شاءه لكان مع غطفان في حرب ، ولمّا لم يملك عُدّتها تحمل الذلة صاغراً . ورأى نفسه مع من يُغار عليهم فتُساق إبله ويؤسر غلامه ، ولو أنّ الأمور إلى أمثل لبات قرير عين ، ولم يذق مرارة الهوان عليه .

ورأى الناس حوله يجر الشر شرًّا ، ولا يقوى شر على دفع شر .

وأحس عوز الناس الى رائد يرودهم ، ومبصّر بالخير يبصّرهم ، ووازع يزعهم بالنصح والقول الجميل . وكانت جفوة غطفان الى خمول مزينة أول شيء أعدّه لتلك الوجهة وهيأه لذلك السبيل . فأجمل من تلك الدعوة ركنه الذي يشتد به حين يشتد الناس بالعشائر والقبائل .

وما أن رأى الحارث بن عوف وهرم بن سنان يصلحان بين عبس وذبيان ، حتى هشّت نفسه لذلك ، وانطلق لسانه بملتقته الخالدة يرغب في السلم ، منددًا بالحرب وما معها من تنافر ، محبّباً في الصلح وذاكراً ما إليه من تواد وتعاطف ، معززاً هذا كله بألوان من الحِكَم ، وفنون من القول الحكيم . وفيها يقول :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانَوْا ودقّوا بينهم عطرَ منشمِ

(منشم : امرأة عطارة . تحالف قوم وغمسوا أيديهم في عطرها . فخرجوا للحرب فقتلوا جميعا فتشاءمت بها العرب) .

وقد قلتما إن نُدرك السلم واسعاً بمال ومعروف من القول نسلمِ

(واسع : ممكن) .

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدَيْن فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عُليا معدٍّ هُديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظُم

وانظر الى قوله فيما ينفر الناس من الحرب ويذكرهم بسوء العاقبة :

فلا تكتُمنَّ الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخَّر فيوضع في كتاب فيُدخر ليوم الحساب أو يُعجَّل فينقم
وما الحرب إلاَّ ما علمتم وذُقتم وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضرى إذا ضرَّيتموها فتضرَم
فتعرككم عرْك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

(التفال : جلد يجعل تحت الرحى . والثفنة كركبة البعير ما غلظ من جلدها كثفنة ، وذلك أبرد لها . والمعنى أن الحرب عندما تحمل عليها ستة وتجيء سنة . وتتئم : تأتي بتوأمين)

فتنتج لكم غِلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم تُرضع فتفطم

(أحمر عاد . عاقر الناقة)

فتُغلل لكم ما لا تُغل لأهلها قرًى بالعراق من قفيز ودرهم

(أي تغل لكم دما على حين تغل قرى العراق من قفيز ودرهم)

وأنت ترى أن نفس المصلح زهير تجري في أبياته جريان الدماء في الشرايين ، وتحس أن مقاطع البيت من خفقات القلب ، وأن إيمان الداعي قد سبق الى قلوب السامعين فدانوا له ، وعرفوا أنه رسول حق وداعية صدق .

وإن كنت قد عرفت النابغة صارخاً لفتته عن رسالته وشغله ببلاط الحيرة يوماً والمتاذرة يوماً آخر ، على ما شفعنا ذلك برأيي ، فعرفُ لزهير هذا الصارف الذي شغله بهرم ابن سنان ، فعنىَّ نفسه بمدائحه ، لم يغْلُ فيها غلوَّ النابغة .

ولو عاش زهير ليشهد ما دار بين بعض ولده وهرم وعمر بن الخطاب حين قال له عمر : أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده . فقال عمر : إن كان ليحسن فيكم القول قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء . فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

أو شهد ما جرى بين بعض ولده وعمر حين قال له عمر : ما فعلت الحُلل التي كساها هرم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر . قال : لكن الحلل التي كساها أبوك هرما لم يُبلها الدهر .

أجل لو عاش زهير ليشهد هذا وذاك ، ورُدَّ اليه الأمر ، لزاد الى حِكَمه حكمة ، تصرف

الشعراء عن أن يُشغلوا إلاّ بما للرأي والعقيدة، فهو أجدى عليهم وأبقى، وأحفظ لكرامتهم من أن تذكر في معرض الاستجداء والاستمناح .

•

وقد أجد لزهير في صلته بهرم شيئاً مما وجدته للنابغة . فقد وجدتُ يدُ هرم في الصلح بين عبس وذبيان سبباً الى قلب زهير، وهو الذي يقدّر المصلحين ويُكبر صنيعهم. فحرّكت بواعث الإعجاب والإعظام من نفسه، وذاق هرم حلاوة المديح على لسان شاعر الحكمة، فخفّ له وأكبر صاحبه، فسخت يده . ورأى زهير يدَ هرم اليه تطول بدَه فيما كان بين عبس وذبيان، فجرى لسانُه بشكره، والشكر تُوجبه النعمة .

وما ندري أكان يقوى زهير على أن يصرف هرماً عن مثل ما فعل بادئاً ذي بدء ويلفته الى خير عام، أو أنه وجد في شكر تلك اليد بمثل قوله :

قد جعل المُبتغون الخير في هرم والسائلون الى أبوابه طرقا
إنْ تلقَ يوماً على علاّته هرماً تلق السماحة منه والندى خُلقا
وليس مانع ذي قُربى وذي رحم يوماً ولا مُعدماً من خابط ورقا

وبمثل قوله :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ما يثير أريحية هرم ويبسط يده لناس عامة. فيكون زهير في هذا جارياً في رسالته، مادحاً هرماً ليضمن للقاصدين والمعتفين باباً من الرزق لا يغلق دونهم رتاجه .

وأنت عن هرم لا تنفك بمذكّر، تعرف له أياديه، وقد كان من الأجواد المعدودين، اختصّ زهيراً بنُضاره، وخصّه زهير بأشعاره .

وفي الحق إن كانت حرب داحس والغبراء، وما جرّت من بأساء وضراء، أثارت غضبة زهير للدم المراق، والنفرة والشقاق، فقد كان كرم الكريم هرم، وما حقن من دم، وكسا وأطعم، مما استخفّ زهيراً فجعل منه عنوان موضوعين، هو السخاء، فقال زهير يدعو الناس الى كرم وجود، كما دعاهم الى سلم وعهود. ضارباً المثل بجود هرم في مثل قوله له:

إذا السنةُ الشهباء بالناس اجحفت ونال كرامَ المال في السنةِ الأكلُ
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبتَ البقلُ
هنالك إن يستغنوا المال يغنوا وإن يسألوا يعطوا وإن يَيسروا يعلوا
على مُكثريهم حقُّ من يَعتريهم وعند المُقلين السماحة والبذل

فأنت ترى زهيراً لا يشكر يداً خُص بها ، بل يشكر يداً عامة ومعروفاً جامعاً ، فهو لسان المُقلين لدى المُكثرين ، يكاد يَفرض لهم حقوقاً في أموالهم ، ويُحرك القلوب لعَونهم في غير إذلال ولا استصغار.

•

هذا ما نظنه ، ولا نرانا مُبعدين أو مقاين ، وهكذا كان زهير على السلم وليًّا وللسادة مُسخياً ، جعل من داحس والغبراء في الأولى سبيلَه ، ومن جود هرم في الثانية دليله.

•

والآن فلنودّع زهيراً لنأخذ في سيرة عنترة ، فهو رابع أربعة اخترناهم صورة للعصر.

عنترة بن شداد

في بني عبس ، وعلى فراش شدّاد بن عمرو — في الراجح من الروايات — وُلد عنترة ترأمُهُ أَمةٌ حبشية تدعى زبيبة .

ويقولون إن شدّاداً ساباها في بعض خرجاته مع قومه ، فأحملها عنترة . وغلبت صبغتُها صبغةَ شداد . فاستقبل عنترةُ الحياةَ بوجه كوجه أمه أسود .

ولما قضى شدّاد منها وطَرَه أرسلها ، فعَلِيقت من غيره بين عُبداناً سوداً ، منهم جبل ، ولم يذكر الناقلون لهم أباً معروفاً . غير أن سعي أخيهم عنترة في إلحاقهم بعبس ، كما سيأتيك نبأ هذا بعد ، يكاد يقفنا على أن هذا الأب الضالّ عربيٌّ لا عبدٌ حبشي ، وأن هذا اللون كسبه الإخْوَةَ من المَعين الذي كسب عنترةُ منه سوادَه .

فعنترة الى عبس أمرُه ، وُلد فيهم عبداً ، ثم استلحقوه على نجابة وبلاء . وشأن العرب استعباد أولاد الإماء ، فاذا أنِسوا لهم ذِكراً ونباهة ، ادّعاهم آباؤهم ، ووصلوا نسبهم بنسبهم ، فكانوا من القبيلة طلقاء أحراراً ، لهم حقوقهم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

وعنترة لِدَةُ النابغة وزهير ، شهد عصرهما ، وأنشأه الأجل أعواماً بعدهما ، فعمّر الى نحو سنة ٦١٥ فيما يقولون .

وشهد كما شهدا داحس والغبراء ، ورثى فيها مالك بن زهير العبسي بقوله :

فلله هيـنا من رأى مثل مالك ... عقيرةَ قوم أن جَرَى فَرَسانِ
فليتهما لم يجريا نصفَ غلوة ... وليتهما لم يُرسلا لرهان
وليتهما ماتا جميعاً بسلدة ... وأخطاها قيس فلا يُريان
لقد جلبا حَيناً وحرباً عظيمة ... تبيد سراة القوم من غطفان
وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها ... ويضرب عند الكرّ كل بنان

غير أنه شارك فيه بسانه بعد لسانه ، يقول ويصول . فكان الشيخان زهير والنابغة إلى جانب غطفان ، وهو الى عبس في جانب آخر . وساقته القوة ساقها ، وأقحمته مقاحمها ، فعاش بين المعارك صائلا حتى إذا ما فصل منها وسكن الى نفسه واتاه خاطر الشاعر فقال . فتراه إذا ما نفض اليد من غارته على جهينة يقول :

سلوا عنا جُهينة كيف باتت ... تهيم من المخافة في رُباها
رأت طعني هوادٍ واستقلت ... وسُمر الخطّ يصل في قفاها
وما أبقيت فيها بعد بِشرٍ ... سوى الغربان تحجل في فلاها

ثم تسمعه يصف لك بلاءه في يوم شعب جبلة ويذكر جلده في قوله :

أرى لي كل يوم مع رماني ... عتاباً في البعاد وفي التّداني
يريد مذلتي ويدور حولي ... بجيش النائبات إذا رآني
كأني قد كبرت وشاب رأسي ... وقلّ تجلّدي ووهى جناني
ألا يادهر يومي مثل أمسي ... وأعظم هيبة لمن التقاني

إلى أن يقول :

وقِرنٌ قد تركت لدى مكرٍّ ... عليه سبائباً كالارجوان
تركت الطير عاكفة عليه ... كما تردي الى العرس الغواني
وتمنعهنّ أن يأكلنّ منه ... حياة يد ورجل تركضان

ويتجه الى عبلة ابنة عمه يستهويها بعرقه مع الأعجام قائلاً :

سَلي يا عبلة الجلّيْن عنّا ... وما لاقت بنو الأعجام منّا
أبدنا جمعهم لما أتونا ... تموج موا كبٌ إلّا وجنّا
وراسُوا أكلنا من غير جُوع ... فأشبعناهمُ ضرباً وطعنا

ويغير على بني الحريقة فينطلق لسانه فاخراً منددًا :

حكيم سيوفك في رقاب العُذّل ... وإذا نزلت بدار ذلّ فارحل
وإذا الجبان نهاك يوم كريهة ... خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعرض مقالته ولا تحفل بها ... واقدم إذا حقّ اللقا في الأوّل

الى أن قال :

ولقد نكست بني حريقة نكبة لما طعنتُ صميم قلب الأخيل
وقتلتُ فارسهم ربيعة عنوةً والهَيذبان وجابرَ بن مهلهلِ

ومثل هذا يصف يومه مع بني ضبَّة :

عَفت الديارَ وباقيَ الأطلالِ ريحُ الصبَّا وتقلُّبُ الأحوالِ

ويقول :

وأنا المنية حين تشتجر القنا والطعن مني سابق الآجال

ويقول :

وسلي عشائر ضبَّةٍ إذ أسلمت بكرٌ حلائلها ورهط عقال

وقريب منه قوله في وقعة كانت بينهم وبين زيد :

لقد وجدنا زيداً غير صابرة يوم التقينا وخيل الموت تستبقُ

ومنه :

ماعبَّستحومةُ الهيجاموجه فتىً إلاّ ووجهي إليها باسمٌ طلِقُ

وله في يوم المَصانع :

اذا كشف الزمان لك القناعا ومدَّ إليك صرفُ الدهر باعا

وفي يوم المَصانع قد تركنا لنا بفعالنا خبراً مُشاعا
أقنا بالذوابل سُوق حرب وصيَّرنا النفوس لها متاعا
حصاني كان دلاّل المنايا لخاض غمارها وشرى وباعا
وسيفي كان في الهَيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصُّداعا

وله يتوعد بني شيبان :

ويلٌ لشيبان إذا مسَّحتُها وأرسلت بيضُ الظُّبا شُعاعها
وخاض رمحي في حشاها وغدا يشُكُّ مع دروعها أضلاعها

فأنت تجد بين شعر عنترة — الطالس له والمصنوع على لسانه — الكثيرَ من ذكر

هذه المواقف . وقد عرفتَ ، مما سقنا إليك قبل ، العصر واضطرابه ، وتلك الخصومات التي ملأت الأيام والأعوام عراكاً ونضالاً .

* * *

ولنا عن عنترة في هذا النضال ونصيبه منه حديث . من الرأي أن نسبقه برجعة الى الوراء قليلاً لنتمّ ذلك الحديث عن عبودية عنترة .

فقد علمتَ شيئاً عن عادة العرب مع أولاد الإماء ، وعلمت أنهم لا يستلحقونهم إلاّ لنجابة ونباهة ذكر .

وكذلك كانت الحال مع عنترة . فقد ظلّ عبداً يرعى إبل أبيه صدراً من شبابه لا يُؤبه له ولا شأن له يلحوظ . حتى أغارت مغيرة على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً لهم ، وعرض لهم العبسيون ، وعنترة بمعزل . فسأله أبوه أن يكُرّ . فكان جواب عنترة إلاّ أن قال : العبد لا يُحسن الكرّ ، إنما يُحسن الحِلاب والصرّ . وكان ظنّ الأب بالابن أنه على فتوّة وقوّة ، فقال له : كرّ وأنت حرّ . فكرّ عنترة وهو يقول :

أنا الهجين عنتره كل امرىء يحمي حره

وأبلى في يومه هذا بلاء حسناً . فادّعاه أبوه واتصل بعبس نسبُه .

بهذا أو مثله خلف عنترة العبودية الى الحرية ، وعرفته العرب شجاعاً جلداً ، وعرفوا مكانه بين الصفوف ، شهد له بها قيس بن زهير حين وقف عنترة لتميم يوم جرت في إثر عبس وقد ولّت ، فحامى عن الناس ولم يُعقب مدبراً ، فساء قيساً ما صنع عنترة فقال : والله ما حمى الناس إلاّ ابن السوداء .

* * *

طلب الشجعانُ عنترةَ وطلبهم ، وكاد الأمر يكون خصومة بينه وبين مناقيه لا حرباً تعني القبائل والعشائر .

تلمس شيئاً من هذا فيما سُقنا لك من شعره في تلك المواقف ، وفيما سنعرض عليك منه ، فتراه يشيد بتوقه ، ويعدّد مآثره ، ثم يذكر عبساً تتمة للحديث دون إفاضة عنهم . فمن قوله يصف يوماً له :

أعاذلَ كم من يوم حرب شهدتُه له منظر بادي النواجذ كالحُ

ثم يلتفت الى قومه فيقول :

فلم أرَ حيًّا صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح

ولكنه لا يلبث أن يعود الى نفسه فيقول :

إذا شئت لاقاني كميٌّ مدجَّجٌ على أعوجيٍّ بالطعان سامح

*

ومن قوله في يوم له آخر :

ألاَ أبلغ بني العُشراء عنّي علانيةً فقد ذهب السِّرارُ

قتلتُ سراتكم وخلّيت منكم خصيلاً مثل ما خُصِيل الوبار

ثم يذكر قومه فيجمع بينه وبينهم ويقول :

ولم نقتلكمُ سرًّا ولكن علانيةً وقد سطع الغبار

*

ومن قوله أيضاً :

وقِرنٍ قد تركتُ لدى مكرٍّ عليه سائبٌ كالأرجوانِ

تركت الطيرَ عاكفةً عليه كما تردي الى العرس البواني

فما أوهى مراسَ الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني

ويريد أن يتم الحديث عن نفسه بإشارة الى قومه فيقول :

وقد علمت بنو عبس بأني أهش إذا دعيت الى الطعان

ولنعمَ فوارس الهيجاء قومي إذا علقوا الأعنّة بالبنان

هُمُ قتلوا لقيطاً وابن حُجرٍ وأردوا حاجباً وابنيْ أبانِ

*

ولا نريد أن نشقّ عليك ، ولنجعل قوله في توعد النعمان آخر ما نسوق له في هذه الغاية ، فتراه يبدأ بقومه فيقول :

لله درُّ بني عبس لقد نُسلوا من الأكارم ما قد تنسل العربُ

ثم سرعان ما يُثنّي بنفسه فيقول :

قد كنت فيما مضى أرعى جماجمهم واليوم أحمي حماهم كلما نكبوا
اليوم تعلم يا نعمان أي فتىً يلقى أخاك الذي قد غرّه العنب

وينسى قومه فلا يعود اليهم الى آخر ما يقول :

والنقع يوم طراد الخيل يشهد لي والضرب والطعن والأقلام والكتب

* * *

هذه أمثلة من شعر عنترة في تلك المواقف . ويكاد يكون ما سقنا صورة لما لم نسُق . وانك لتقرب أن تحس ، أن الأيام أيامه ، وأن الحرب حربه ، وان الكرّ كرّه ، وان القوم من ورائه يجرون في إثره ويترسمون خطاه .

فعنترة لم يفعل مع هذه الأيام أكثر من أن يسجل لنا تلك الحوادث ، أو قل من أن يسجل لنا غدواته وروحاته ، وما فعلت كفّه ، وكم سبى وكم قتل ، في إسهاب مكرر وإطالة محاودة . ويكاد يكون ما يقال هنا يقال هناك ، مع تحوير وتغيير .

وقومه في كل ذلك لا يُذكرون إلاّ ليضيف من الفخر بهم الى الفخر بنفسه ، وإلاّ حين يذكر عنترة أنه يصف حرباً حشدت لها جموع ، لا براز له خصمان .

*

ونحب أن نعرف أن عنترة كان له من قومه شكاية ، وفيهم عتب ، جهر بذلك في غير موضع . فهو الذي يقول :

أعاتب دهراً لا يلين لناصح وأخفي الجوى في القلب والدمع فاضحي
وقومي مع الأيام عون على دمي وقد طلبوني بالقنا والصفائح

وهو القائل :

إذا فاض دمعي واستهلّ على خدي وجاذبني شوقي الى العلم السعدي
أذكّر قومي ظلمهم لي وبغيهم وقلة إنصافي على القرب والبعد
بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً فما تناهى مجدهم هدموا مجدي

وهو القائل في قومه وقد خرج عنهم غضبان بماله وإخوته :

لا تقتضي الدين إلاّ بالقنا الذبل ولا تحكّم سوى الأسياف في القلل

ولا تجاور لئاماً ذل جارهم وخلّهم في عراض الدار وارتحل

وهو الذي توعدهم بقوله :

أظلماً وربي ناصري وحسامي وذلاً وعزي تالدي بزمامي
ولي بأس مفتول الذراعين خادر يدافع عن شباله ويحامي
وإني عزيز الجار في كل موطن وأكرم نفسي أن يهون مقامي
هجرت البيوت المشرفات وشاقني بريقُ المواضي تحت ظل قتام
سأرحل عنكم لا أزور دياركم وأقصدها في كل جنح ظلام

هذان شيئان جرّ أحدُهما الآخر . فقوم عنترة عرفوه عبداً ، وانتبذهم هو الى رعية الإبل لا يشارك فيما يشارك فيه الأحرار ، ووجد من الحاجة اليه وسيلته إلى إن يُعدّ من أحرارهم فكان لها نهّازاً ، واحتملوه هم على غير رغبة منهم ، فكانت لهم إليه لفتات أحسّ منها عنترة الانتقاص مما نال . ويظني أن الألسنة لم تبرأ من وخزه ، والعيون لم تقف عن غمزه . وأحسّ هو أنه لا يزال بين الناس عبداً ، وأن ما ناله كلة لم تنزع إيماناً سكن القلوب ، وعقيدة أشربتها النفوس . فليدعه أبوه إليه ، وليتصل النسب بالنسب . ولكن الناس على دين قديم نشّأهم على امتهان العبد والتقاصه ، وجرّاهم على أن يعدّوا تلك صفة لا فكاك منها إلى يوم الدين .

هذا شيء وجده عنترة فوجد له ، وجرى لسانه به شاكياً فيما شكى ، ألم تسمع إلى قوله :

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبتسمد الفحشاء عني كبُسمد الأرض من جوّ السماء

والى قوله :

تُعيّرني العِدا بسواد جلدي وبيضٌ خصائلي تمحو السوادا

ثم اليه يخاطب قومه :

يعيبون لوني بالسواد وإنما فعالهم باللؤم أسود من جلدي

وتعالَ الى قوله :

انْ كنتُ في عند العبيد فهمَّتي فوق الثريا والسماك الأعزل
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي فسنان رمحي والحُسام يُقرّ لي

فأنت ترى عبداً لم تَمُدْ فيما منحت القولَ الذي لم يؤيده فعل ، وأحس عنترة معه أنه غريب عن القوم وإن كان منهم فالتفت الى نفسه ، وكان لهذا أثره في خصّه نفسه بأكثر شعره ، والإشادة بما فعلت يداه في الكثير مما قال .

وكذلك جرّته المهانة يلقاها في نادي قومه إلى أن يكون على ما وصفنا لك ، وأن يصبغ شعره بهذه الصبغة .

وكان لهذا النزاع بين عنترة وقومه بقية ، فقد كان له إخوة ، شأنهم من شأنه ، الأب من جنس الأب والفراش هو الفراش . وكان بقاؤهم على العبودية شيئاً يقضّ عليه مضجعه ويهيج حزنه . وما لهم بلاء كبلائه يستلحقون به ، وماله هو صبر على ما يلحقه ببقائهم تحت سمعه وبصره يسامون ما تسام العبيد . وكأنه فطن الى أن حريته ينقصها أن يرى الى جانبه إخوته أحراراً ، فيقطع بذلك دابر المعرّة ، ويوصد في وجوه عائبيه الباب الى عيبه .

فاحتال لذلك بأن أوحى الى خير إخوته عنده ، وكان يدعى حنبلا ، أن يروي مهره من اللبن ، وان يمرّ به عليه عشاة في نادي قومه . فاذا ما قال له عنترة : ما بال مهركم مهزولاً ضامراً ؟ أهوى حنبل بالسيف الى بطن المهر فضربه . فيظهر اللبن .

ولمّا كان ما أراد عنترة قال :

أبني زبيبة ما لمهركمُ متخدراً وبطونكم غُبْرُ
ألبانكم بإبغال الوليد على إثر الشياه بشدة حِبْرُ

وينقل الرواة أن الأمور لم تجر إلى ما رجا وأمّل ، فاستلاطهم نفر وتقاعم نفر .

* * *

وبعد هذا يجيء حديث عبلة ، ابنة العم التي شغف بها عنترة وأكثر من القول فيها ، وهل ترى القوم حبسوها عنه ومطلوه في أمرها إلاّ لهذا الذي صحب عنترة من المهد ، ولم يبرئه منه ادعاؤه عن فضل وبلاء .

واتجه عنترة الى عبلة يحدثها عن فتوته وإمعانه في الأعداء . وقديماً استهوت الغواني شجاعة الشجعان . فقال لها :

فلو أن عينيك يوم اللقاء ترى موقفي زدت لي في المحبه
وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربتُ به ألف ضربه
وتشهد لي الخيل يوم الطعان بأني أفرّقها ألف مره

ثم يدرك أن هناك شيئاً آخر غير هذا يحسن به أن يجمّله في عينها ، فيقول :

وإن كان جلدي يُرى أسوداً فلي في المكارم عزٌّ ورتبه

ويعود إليها ببلائه في يوم له مع بني عامر فيقول :

سلي يا عبل عنا يوم زرنا قبائل عامر وبني كلاب
وكم من فارس خلّيتُ مُلقىً خضيب الراحتين بلا خضاب
يحرّك رجلَه رعباً وفيه سنان الرمح يضع كالشهاب

وكأن عبلة كانت على دين قومها ، فلا يستجيب قلبها لتلك الصرخات ، ويرجع بها عنه شعور بالنقيصة تلوّث أردانها إن وصلت حبلها بحبله ، فتغلظ له ، وتأخذ عنترة العزة فيقول:

سلا القلبُ عما كان يهوى ويطلبُ وأصبح لا يشكو ولا يتعتبُ
صحا بعد سكْرٍ وانتحى بعد ذلّةٍ وقلب الذي يهوى العلا يتقلب
الى كم أُداري من تريد مذلّتي وأبذل جهدي في رضاها وتغضب
عُتَيْلة أيامُ الجمال قليلة لها دولةٌ معلومةٌ ثم تذهب
فلا تحسبي أني على البعد نادمٌ ولا القلب في نار الغرام يعذّب
وقد قلت إني قد سلوت عن الهوى ومن كان مثلي لا يقول ويكذب
هجرتك فامضي حيث شئت وجربي من الناس غيري فالمجرّبُ يجرّبُ

والحديث عن عبلة يطول . وهمّنا منه هو أن القوم جعلوا من هوى عنترة بها إحقاقاً لما يريدونه عليه . فأرسلوه على الأعداء غازياً ، وحملوه عبء الدفاع والذود عن حماهم ، وكانوا بعد هذا بين إقدام وإحجام في أن يزفوها اليه . فقد وُلدت على فراش غير الفراش الذي ولد عليه . ولهذا قدْره وشأنه عندهم . فأنتلوا عليه وعنّوه بطلب العصافير مهراً لها.

* * *

شيء واحد كان لعنترة أن يلتفت إليه ويخصه بالقول ، هو ذلك الغنم الذي أرهقه به

قوم وآخوه ، وتلك الروح التي فرّقت بين الناس في المهاد فجعلتهم عبيداً وأحراراً ، وذلك الظن بأن العبد إلى عزلة لا يقرب مواطىء أقدام سادته .

لقد ذاق عنترة من صنوف الإذلال كثيراً ، ذاق ذلك في نفسه ، وذاقه في إخوته ، وذاقه في صلته بعبلة . فماذا فعل ؟ وبأي لون من القول ذاد عن تلك الكرامة التي هدرها قومه .

لا تجد الرجل إلاّ ضعيفاً مستخذياً يرى رأي القوم فيه ، ويحاول في غير توفيق أن يجعل من شجاعته وإقدامه ما يمحو عنه ما اتصل به عن أمه ، فتراه يقول :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمي سائري بالمُنصل [1]
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحمت ألفيت خيراً من مُعمٍّ مُخول

* * *

فأين لعنترة — وكان له إلى لسانه يدٌ باطشة — شعره في الدفاع عن العبودية وحمل لواء المساواة بين الأفراد ؟

ومن يحمل لواء المساواة بين الأجناس إذا لم يحمله أمثال عنترة ؟ بل عنترة به أولى .

هذه هي رسالة عنترة التي فرط فيها .

أما قوله في تلك المعارك الناشبة ، التي سيق إليها سوقاً ، والتي كان فيها حرباً مع من لا يحملون له ولاء ، ولا يكادون يقرّون له بينهم نسباً ، فما هو بشيء .

وإن عددنا له بعضاً مما كان عليه ، فأين غيره ، وقد كان مجال القول فيه فسيحاً ، والفرصة مواتية ، والمخطب خطبه ، في نفسه وأمه وإخوته ، فحمّله همّاً لم يَدَعْه . وكأني به قد مضى حين رماه ابن جابر النهاني فقطع مطاه ، فقال عنترة يخاطب مَنْ حضرهم قومه :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمي وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي

*

تُرى لو بعث عنترة ورأى كيف نامت عبس عن الأخذ بثأره ، وأن ابن جابر عاش لا يخشى وتراً ، أما كان يرى أنّا لم نظلمه ، وأنه ظلم نفسه حين ترك ما كان له إلى غيره ؟

---

(١) يقول : إن أباه من أكرم عبس ، وأما عن أمه ، فهي شجاعته ما يعوض عليه ما فقده فيها .

حَسَّان

ابن ثابت

خير ما نقدِّم به لحسان بن ثابت كلمة الأصمعي : « الشعر نكِدٌ بابه الشرُّ. فإذا دخل في الخير ضعُف». هذا حسّان بن ثابت خلَّ من خول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره » ؛ ثم كلمة له خرى من هذه وإليها: « شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقُطع متنه في الإسلام » .

ما نريد بهذا أن نعرف أين أجاد حسان وأين قصَّر ، فتلك دراسة أخرى ؛ وما بنا أن نلتفت عما بدأنا فيه إلى رأي بيِّنا تخلَّفه عن الغاية . ولكن عَسَانا أن نعرض لمثل هذا الرأي فنذكر به كيف شُغل الناس بحسّان . فرأيناهم يقدرونه على قوله لا على رأيه ، ويستمعون إليه استماعهم إلى الزامر ينفخ في قصبته ؛ أما أنه شاعر يحمل إلى القول الرأيَ والفكرة فما بهم إليه التفاتة .

وقد أتاك أنَّ « حسانا » ضَمَّه عهدان ، عهد يسبق الإسلام ، وعهدٌ يبدأ به . وقد تُحب أن نَصِلك بنَسب حسّان وعشيرته قبل أن نحدثك حديثه هنا وهناك .

فهو ابن ثابت بن المنذر بن حرام ، وحرام من النجار ، والنجار من الخزرج .

وأمه الفُريعة بنت خالد بن قيس ، خزرجية .

وفي يثرب وُلد ، وفيها نشأ وشَبَّ ، يغذوه جاه أبيه وثراؤه .

واذا ذُكرت الخزرج ذُكرت أوس ، فقد شهدت لها يثرب حقبة استشرى فيها الشر وانطوت فيها الصدور على ترات ، والنفوس على حسائك ، والقلوب على بغضاء.

وكان مع الأوس شاعرُهم قيس بن الخطيم ، وما هو بأوسيّ إن لم يَتل من الخزرج بلسانه ، وينبري لهم ببيانه . وما رجت الخزرج حساناً ، إلاّ ليدفع عنها ويذود دونها .

فوقف حسان لقيس يهجوه ويهوّن من شأنه ، علّه أن يذل ويخزى ، فيكتب حسان لقومه نصراً حيث مجاله ومصاله .

تذكر له من هذا قوله :

لعمر أبيك الخير يا شمّ ما نبا ... عليّ لساني في الخطوب ولا يدي

(شمّ ، يريد : شمّ ، اسم المرأة التي كان يتشبب بها)

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيفُ مِذْوَدي

(المذود : الناب)

وإن أكُ ذا مالٍ كثير أجد به ... وإن يقتصر عودي على الجهد يُحمدِ

فلا المالُ ينسيني حياتي وحفظتي ... ولا وقعاتُ الدهر يَفلُلن مبردي

وإني لمعط ما وجدتُ وقائل ... لموقد ناري ليلة الريح : أوقدِ

الى أن يقول :

فلا تعجلن يا قيس وأربعْ فإنما ... قصاراك أن تلقى بكل مهنّد

(اربع : قف : قصاراك : جهدك)

حسام وأرماح بأيدي أعزةٍ ... متى ترهم يابن الخطيم تلُد

ليوث لها الأشبال تحمي عرينها ... مداعيس بالخطيّ في كل مشهد

(مداعيس : طاعنون)

فقد ذاقت الأوس القتال وطرّدت ... وأنت لدى الكتّات كل مطرّد

(الكتات : الكتائب . يشير الى حيته)

فتاغر لدى الأبواب حوراً نواعماً ... وكحّلْ ما قيك الحسان بإثمد

نفتكم عن العلياء أمّ لئيمة ... وزندٌ متى تقدح به النار يَصلد

(يصلد : يصوت ولا يورى)

كما نذكر له قوله :

ما بال عيني دمعها تكفُ ... من ذكر خود شطت بها قذفُ

فغادروني والنفس غالبها ... ما شفّها - والهموم تعتكف

لعلّي أكون مشغوفاً بمصرية هذا الشاعر ! ولعلي أكون قد بالغت في وصف شغفي هذا ! ولعلي كتبت ومصر من ورائي تهمس في وجداني : إني أطالعك من خلال هذه القصائد ! لعلّ مصر الأبدية التي تحلق بأجنحتها القوية في ضباب هذا الشرق ، قد همس هسيسها الخفي في نفسي فألهمني بتلك المعاني ، فأجرى ذلك الذي كتبت على قلمي ! لعل ذكرياتي التي انطبعت في نفسي عن مصر وريف مصر ، وغدرانها الوارفة الظلال المنسابة انسياب الأفاعي بين الحقائل الخضر ، ونسمات السحر التي تطالعك مع الخيط الأبيض من الفجر بين الحقول المطمئنة الساكنة الهادئة ، أو ضفاف النيل المنساب حفافيها بشدة الجبار وكأنها تغالبه أن يجرفها معه ، أو غناء القبّرة عند الصباح ، أو صياح الكروان في سكون الليل والقمر تائه بين السحب كأنه قرصاً من الفضة سابحاً في بحر يعلوه الزبد . لعلّ تلك الذكريات المصرية الفاتنة هي التي أجرت قلمي بتلك العبارات ! عجباً . ألا يكفي الشاعر أن يستلّ من قلم ناقدٍ ما استلّ ، بما أيقظ في وجدانه من معانٍ ، وبما حرّك في نفسه من ذكريات كلها صدق وكلها حق ، وكلها مصر : أمّنا الخالدة !!! .

* * *

إن مصرية هذا الشاعر مصرية عميقة ، تضرب في صميم الوطن الى أعماق بعيدة من الأحاسيس الحية . لا تقتصر مصريته على أن يصف منظراً مصرياً أو يتغنى بمجد مصري . وإنما هو في شعره قطعة من مصر ، وعنصر من ترابها ، وجوهر من جوّها . فاذا وصف عبيد « الرياح » مثلاً ، لا تشعر بأنه يصف العبد أو الريح أو النيل أو الشاطئ ، بل يصف مصر منذ أبعد أيام تاريخها الى يوم كتب تلك القصيدة الفذّة . أما « عبيد الرياح » فأولئك الملاحون الذين يرون على شاطئ النيل أو على غدرانه يجرون سفنهم مغالبين التيار بحبال يشدونها الى صدورهم وعلى كواهلهم . أولئك الذين استعبدتهم الرياح والتيار فألقت بهم في تلك المحنة التي يغالبون فيها الطبيعة وذلك الجبار الأبدي ، معبود قدمائنا منذ أبعد العصور ، وهم :

جبابرة عوّدوا للهواء وبثوا رقاهم لريح المغيب
يلوحون صفّا وئيد الحراك كأنهم صلبوا في الكثيب

يسيرون سير الطوان المريب ويمشون مشي الزمان الكئيب
فتحسبهم وغدا في الخيال وعينك تأخذهم من قريب
على صدرهم في غصون الكفاح أفاعي جبال تنف الجنوب
تجاذبهم خطوهم للوراء فهم من عناد بقايا حروب
سواعدهم موثقات الزنود ولكنها عدة للهبوب

تشق الفضاء بأصفادها تتشق أجوازها أو تذوب
وأجسادهم حانيات لها ركوع المحمل تقل الذنوب

* * *

شدّوا واستجاروا واخاب النداء فغاصت خطاهم وشقوا الجيوب
ومرّوا حفاة عراة لهم شهيق الثكالى وزفر الغريب
على الأرض أخرس واذ همهموا تهذي صلاة تذيب القلوب
يجرون أيامهم خلفهم وذكرى شقاواتهم والكروب

* * *

عبيد الرياح : كلانا رقيق ! فقنوا وسلوا عبيد الخطوب

* * *

هذا مشهد واحد من مشاهد مصر، ولكنه مصر كلها، منذ أقدم الأزمان الى اليوم. وفي هذا الشعر لمحات بل ومضات تردك حيناً الى أبعد أزمان تاريخنا القديم، ثم تثب بك وثبة واحدة، فاذا بك قد قطعت القرون الى يومك هذا. هذا والمشهد هو المشهد، والرجل هو الرجل، والنيل بذاته، والسفينة بعينها، والتيار والرمال والحبل المشدود، والزمن البعيد الذي يجرّونه من ورائهم وراثة منذ فجر التاريخ، والكروب التي نزلت بهم والخطوب التي تتلقاهم الآن. أليست هذه مصر الخالدة، التي أخذت الآن تضرب بأجنحتها في ضباب الشرق؟

* * *

كذلك هو اذا تكلم عن «الجزيرة»، فانه يرمز بها الى مصر. يطالعك بقصيدته هذه شجواً لين الأوتار ونغماً يخرق آذان الصم، وأشعة تخترق صميم القلب، وتظل هائمة حتى تستقر في أعماق الوجدان.

لم يلتفت الى العذارى اللواتي يدرن في الجزيرة أمثال الشموس، أو الأوانس السُّفّر أو ظل الشجر على الأرض إذ يلوح مدرهماً ومدثّراً، كما فعل غيره من الشعراء الذين اقتصر خيالهم على الجزيرة التي تقع حيال القاهرة على شاطىء النيل، وانما تمثل مصر في الجزيرة. أليست كل قطعة من مصر هي مصر؟

قال: «وأومأ النوتي بنايه الى اشراقة الشمس، فهمنا مع الجزيرة نشرب من هذه الصلاة»

سبقت الى النيل خطو الصباح فتيّمته بالصبا والفنون
وخمر الهنيّة في يديك وكأس من الحب ملأى جنون
ولغرك تغريدة ما وعى ترانيمها غير قلبي الحزين
عشقت صداها فغنيتها ولقنتها لشفاه السنين

وما كنت أدري ما الهوى والحياه
ولا السحر في أغنيات الشفاه
ولا كنت أعلم سر الإله
سوى بعد ما لحت لي فتنة
وأقبلت لي مرّة تبسمين

وعيناك علمتاني السجود وكيف أخر مع الساجدين
لهم دينهم في زحام الصلاة وديني الضياء الذي تنشرين
عبدت بك الله ... ما في دمي ولا في في غير هذا الرنين
فياوتها ناعماً في الجفون ويا سجدتان بدير الجبين

ويا قبلتان بخد الصباح
ويا بسمتان بثغر الأقاح
خلقت بين جنبي نار الجراح
فردّي لبلواي سحر المنى
وبثي حديث الهوى ياعيون!

* * *

أليست هذه أبعد آفاق الشعر، تنزل منها هذه الترانيم الشجية، فتثير في النفس ما نام من كوامنها، وتبعث في العقل ما بعد وانطوى من احداث القرون؟

اسماعيل مظهر

مكتبة المقتطف

تاريخ العالم

The Universal History of the World

كتاب نشر أصله الانجليزي في تمانية مجلدات ضخام ، وحلي بآلاف الصور النادرة ، وكتبه عشرات من كبار رجال الاختصاص في العلم والادب والفنون والتاريخ ، وعمدت ادارة الترجمة في وزارة المعارف بترجمته لفئة من رجالها صبروا وسابروا على تذليل لغة الضاد في أسلوب سهل المأخذ قدر ما يستطيع المترجم أن ينقل عن جهابذة من أهل الاختصاص في مختلف فروع المعرفة ، واضطلعت بنشره مكتبة النهضة المصرية ، فأخرجت العدد الاول منه في أربعة وستين صفحة من القطع الكبير ، ملأى صورة كاملة للاصل الانجليزي ، وسيتم الكتاب أعداداً متلاحقة .

وأزاء هذا العمل العلمي الكبير لا يسعنا إلا أن نحيي كل من اشترك في إخراجه بالرأي أو العمل أو الجهد ، تحية خالصة لوجه العلم ونخص بجزء عاطر منها ناشري هذا الكتاب أصحاب مكتبة النهضة المصرية ، فليس في هذه البلاد نقص في القدرة على الترجمة والنقل ، ولا نقص في أصحاب الرأي أو النفس ، ولكن النقص فيمن يقدم على نشر مثل هذه الموسوعات الكبيرة التي تعدّ من مراجع فروع المعرفة ، ولا شك أن ظهور العدد الأول من هذا الكتاب في العربية يعد حادثاً تاريخيًّا في هذه البلاد خاصة وفي العالم العربي جملة

بدأ علم التاريخ يتألف منذ أقدم العصور ، وقبل أن يخترع الانسان الكتابة فقد خلف الانسان آثاره الباقية في سطح الأرض وفي صخورها وفي جوفها ، وانقضت القرون تلو القرون ، فضاع من معالم ذلك التاريخ ما ضاع وبقي منها ما بقي ، فمنذ بدأ الانسان يرسم بالنقوش المعاني المختلفة ، عني في أول ما عُني به أن يخلف أخباره منقوشة في الصخور

أو على الألواح المطبوخة وبدأ يدوّن عند ما ترك الازميل وأمسك بالقلم الذي علّم الانسان ما لم يعلم .

وجرى علماء التاريخ في عصور متطاولة على تحليف المدوّنات يروون فيها الحوادث ويسجلون أسماء الملوك والعظماء وأعمالهم وعلاقة الدول والحضارات ، على وجه كان فيه من الاقتضاب والاختصار ، ما حمل العلماء على أن يعيدوا كتابة التاريخ عصراً بعد عصر ، ودهراً بعد دهر ، ليسدوا ما ترك المدوّنون الذين سبقوهم من ثغرات ، وليدلوا بآرائهم واستنتاجاتهم التي يستقرئونها من الحوادث ، فأخذ التاريخ الانساني يشب وينمو ، حتى اتخذ من العلوم الصرفة ومن العلوم النظرية أداة يكمل بها أطوار المأساة الانسانية فوق هذه الأرض ، ومضى يربط بين ما كشفت العلوم من حقائق هذا العالم وبين الانسان سيد أهل الأرض ، فاذا بالتاريخ يخرج بتطوره من عالم الازميل يجري على الصخر الى عالم ما فوق الطبيعة ، فيُشرف بهامة الجبار على فروع المعرفة جميعاً . وما يظهرك على ذلك قدر ما يظهرك كتاب تاريخ العالم الذي نحدّثك عنه في هذه العجالة القصيرة .

نظر التاريخ الى عالم الحياة والى عالم الانسان نظرة أضيق ما يكون في أول تخلّفه . ثم أخذت هذه النظرة تمتد ثم تمتد ، متبعة في ذلك تطور الفكر والعقل البشري ، ومضى يزيح عنه غبار الجهل بحقائق الكون وحقائق الحياة ، فاذا بعصر اعي الباب الذي غشي عليه الصدأ ينفتح رويداً رويداً ، فتظهر من خلاله تلك العوالم الشاسعة التي تدخل في نطاق التاريخ ، عوالم الحيوان والنبات والانسان والجماد ، وعوالم الفكر والفن والعقل ، وعوالم المجرّات والكوكبات والسديم ، وعوالم الأشعة الكونية والذرات وعوالم الشعور والانفعال والشهوات ، وإذا بالتاريخ يحتضن هؤلاء جميعاً ، ويمسك بيده القوية مشعل المعرفة يضيء به ظلمات الماضي ، ولكنه يقف أمام المستقبل المجهول وظهره الى هاوية .

هذا تصور التاريخ على ما يفصل لك هذا الكتاب . وانني لشديد الاعتقاد بأن درس هذا التاريخ سيكون له الأثر الأكبر في تحويل الفكر الشرقي ، وبث روح التوثب الى المعرفة الشاملة ، التي اكتفينا منها حتى الآن بنتف وأقساط . ولئن كنا في هذا العصر

أحوج الشعوب الى حملة ثقافية ، بل حملات تقضي بها على ما خلفت الصحافة الصفراء والصحافة الاخبارية من مظاهر العجز الفكري الذي تجلى في جميع مرافق حياتنا العقلية ، فان هذا الكتاب وحده كفيل بأن يكون من أعظم أدوات البناء .

اسماعيل مظهر

بين العلم والأدب

للاستاذ قدري حافظ طوقان — مكتبة فلسطين العلمية — ٢١٠ صفحات من حجم المقتطف

قرّاء المقتطف يعرفون جيداً العالم الفلسطيني الجليل الأستاذ قدري حافظ طوقان ، فقد تعهد في مدرسة هذه المجلة ، وتتلمذ على أساتذتها ودرج فيها حتى صار إماماً وحجة وثقة ونشر بحوثه على صفحاتها فعرف كيف يخضع جموح التعبيرات العلمية لسلاسة البيان العربي وكيف ينتقي الموضوعات العلمية ذات الاتصال بحياة المرء اليومية ليبسطها ويجلو خوافيها ويميط عنها حُجب الجهالة .

وقد أصدر الأستاذ طوقان أخيراً كتاباً بعنوان « بين العلم والأدب » نشر في فلسطين — وهي بلاد توزعتها القلاقل والحروب — يضم فيه بحوثه ومساجلاته وخطبه ومحاضراته التي أذاعها بوسائل النشر والمذياع والمنبر ، ليكون سجلاً لنشاطه في بضعة عشر عاماً .

والأستاذ قدري طوقان عالم بفطرته متشبع من العلم بسليقته ، فاذا ما تعرّض لمبحث علمي كان فارس الحلبة بغير نزال . ولكنه حين يتعرّض للموضوعات غير العلمية وحين يطرق الأبواب التي تمليها عليه « المناسبة » تراه يجنح الى الأسلوب الانشائي ويغلّبه على الاسلوب « الحقائقي » مما ينشيء في كتابه فجوات يحسّ بها القارىء الذي حزم أمره على تلاوة موضوعات علمية مجرّدة ، فشتّان بين فصل درسي كفصل « حول القبلة الذرية » ، وفصل هزيل سابق له كفصل « الاحسان » ، وما أبعد الشقّة بين فصل متّصل بالحقائق كفصل « المكتشفات العظيمة من الوسائل البسيطة » ، وفصل بادي القصور مثل « من هو المثقف » ، وهذا التفاوت في مرتبة فصول الكتاب — وهو تفاوت مبعثه تباين موضوعاته وتناثرها — يعدّ في عرفي نقصاً ليت المؤلف الفاضل جانبه وتلافاه .

ومن المآخذ التي يعن للناقد أن يقتنصها للأستاذ طوقان أنه نشر أحاديثه ومقالاته وبحوثه كما هي ، فلم يمهّد لها أو يوطىء لها ببيان أو يبسط مناسبتها وملابساتها مما يعين القارىء على متابعتها تتبعاً كاملاً . فهو يقول في مستهل مقال له :

« سرّني اهتمام الريحاني بالفلك وما يحويه من أرقام ... الخ » ، ثم يأخذ في الرد على مقال الأستاذ الريحاني دون أن يشير الى اسم الكاتب كاملاً ، ودون أن يشير الى المكان الذي نشر فيه مقاله ودون أن يطلعنا على نص هذا المقال . فالقارىء يرى ردًّا ولا يرى المقال الذي حفز على هذا الرد ، فيصبح في شبه ضلال كان يمكن اجتنابه لو أن الأستاذ طوقان أضاف مذكرات تفسيرية إلى كل مبحث من مباحثه ليستعين بها الدارس في درسه.

هذا عن عورات الكتاب ، أما حسناته فهي كثار وفيرة لأن للاستاذ طوقان اسلوباً فريداً في تبسيط المعميات العلمية وتوضيح خفايا العقد المستعصية . وله طريقة فذّة في انتقاء موضوعاته بحيث يختار منها ما يشوّق ويرغب . فهو يبدأ كتاب « بين العلم والأدب » بفصل عنوانه « فضل السفر على المدنية » وهو موضوع طريف طليّ جذاب عامر بالمعلومات العلمية الممتعة. ويحدّثك الأستاذ طوقان بعد هنيهة عن « غرائب الاعداد وعجائب المعادلات » فينقلك معه الى موضوع آخر لا يقل طرافة ولا روعة عن سابقه ، وهو كذلك ينطوي على زاد علمي مكدّس . ثم يحدثك عن أمراء العلم من الشرقيين أمثال ابن الهيثم وابن ماجد ومن الغربيين أمثال السر جيمس جينز ومكسويل وفراداي وادنجتن فيكون حديثه تساوقاً بين العلم والأدب وتآلفاً بين فن كتابة السير وفن تبسيط العلوم .

ولولا نكبة فلسطين — بل نكباتها — لكان الأستاذ قدري طوقان يتصدر اليوم رعيلاً كبيراً من العلماء العرب ، ولكن هذه المأساة حالت دون أن يبزغ الى جانب الأستاذ طوقان نجوم أخرى من تلامذته ورفقائه . فلطفاً اللهمّ بأرضك المقدسة لأن العلم والأدب فيها يكادان يختنقان بفعل الثورات والاضطرابات والحروب التي ما فتئت تصلى فلسطين نارها حامية .

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

الفيتامينات وعمر الانسان

تعيش ملكات النحل مدة أطول مما تعيشه الذكور فمتوسط عمر الملكة يبلغ حوالي خمسة سنوات بينما الذكر يعيش في المتوسط صيف واحد. والأسباب المحتملة هي أن الملكات تتغذى على مزيج من العسل وحبوب التلقيح وهو الطعام الذي يعرف باسم الغذاء الملكي. بينما الذكور محرومة منه.

وبعد عدة أبحاث وجد الدكتور توماس س. جاردنر أن التفسير يقع في الغذاء الملكي «حامض البانتوثينك» الموجود في الغذاء الملكي يزيد متوسط الحياة لحشرات الفاكهة من ١٣٫٣ يوماً الى ١٧ يوماً ويكون هذا الحامض في صورة مركّزة أحد أنواع فيتامين ب المركب.

***

وبعد أن أثبت الدكتور جاردنر تأثير هذا الحامض رجع الى أبحاث أجراها قبل سنة ١٩٤٦ على الفيران. في ذلك الحين وجد أن العمر المتوسط للفيران يزداد حين تعطى بعض الفيتامينات الأخرى الموجودة في الخميرة.

وبدأ يجرب ليرى تأثير هذه الفيتامينات الأخيرة مع حامض «البانتوثينك» على إطالة عمر حشرات الفاكهة فوجد أن عمرها المتوسط قد ازداد من ٣ و ١٣ يوماً الى تسعة عشر يوماً أي زاد بنسبة ٤٦٫٦ في المائة. فإذا كان لهذا المزيج نفس الأثر على الانسان إذن لازداد متوسط سنين حياته حوالي ثلاثين سنة.

ولكن ليس هناك الآن من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المزيج من الفيتامينات سيكون له نفس الأثر في الانسان ولكن على أية حال فان تقرير الدكتور جاردنر المتضمن لنتائج أبحاثه والذي قدمه الى الجمعية الكيميائية الأمريكية سيثير الاهتمام بالفيتامينات من زاوية جديدة إذ سيحاول علماء الكيمياء الحيوية كشف ومعرفة الناحية الايجابية لعمل الفيتامينات عوضاً عن قصر اهتمامهم على رؤية آثار نقصها كما هو الحال الآن.

إبادة الفيران

إن الفأر عدوٌّ قديم للانسان وقد حاول العلماء القضاء على هذا العدو المخيف وإصابته في الصميم . واليوم نجد بين ظهرانينا ثلاثة مواد ألفها الكيميائي في المعمل لإبادة هذا المخلوق الضار سيكون لها فضل كبير على النوع الانساني .

ففي دولة كانولايات المتحدة نجد أن الفيران يبلغ عددها حوالي مائة وعشرين مليوناً وتلتهم قائمة طعامها السنوية ، التي لا يتكفل بدفعها غير الانسان ، عامرة بكل ما لذّ وطاب وبما يقدر ثمنه بحوالي مائة وخمس وعشرين مليوناً من الجنيهات إذ تمثل حوالي مائتي مليون أردب من القمح وكميات هائلة من الجبن والسكر وبيض الدجاج . الخ .

* * *

وليست الفيران كاللصوص تسرق طعامنا وتكتفي بذلك ، بل هي أضل سبيلاً فهي من القتلة السفاكين . إذ تنقل جراثيم أمراض مميتة يربو عددها على العشرين ، منها الطاعون والتيفوس وتقدر الاحصائيات أن الفيران سببت من الوفيات ما يفوق ما سببته جميع الحروب التي شهدها التاريخ .

وقد ضايقت الفيران الانسان من قديم العصور ولكن الانسان العصري يواجه اليوم فأراً أشد وأقوى من أجداده الأقدمين التي واجهها الرومان والمصريون القدماء ... فالقدماء حاربوا الفأر الأسود بينما ظهر في القرون الحديثة نوع جديد هو الفأر البني ، تخاف منه القطط والفيران السوداء .. فهو فأر محارب مخيف ويفوق في عدوه اليوم الفأر الأسود والأنواع الأخرى من الفيران .

***

والآن قد بدأنا نتغلب على هذا العدو فقد ظهرت في السوق ثلاثة مبيدات للفيران أحدها هو الأحسن للاستعمال في المنازل [ويرمز إليه بالرمز « ا . ن . ت . ى »] لأنه غير ضار بالانسان .. وهناك دواء آخر وهو « كاستركس » أشد في أثره خمس مرات من الأول ولكنه ضار للانسان . ومع ذلك فهناك مواد يمكن بها وقف فعله التام في الانسان .

أما المادة الكيميائية الثالثة (الفائقة القوة في إبادة الفيران) فهي « ١٠٨٠ » (تركيبها الكيميائي هو فلورو خلات الصوديوم) وهي مادة جد سامة عديمة الطعم واللون والرائحة ومميتة الى حدٍّ بعيد . ولا يجب أن يزاول استعمالها إلاّ الاخصائيين إذ لا يمكن وقف أثرها التام بأية حال ...

البيفاترون

أعظم « سيكلترون » يستخدم اليوم في العالم هو الجهاز الموجود في جامعة كاليفورنيا والذي تبلغ قوته أربعمائة مليون ألكترون فولت . ويزن أربعة آلاف طن . ويزيد قطره على خمسة عشر قدم وبدأ عمله في سنة ١٩٤٧ .

* * *

وقد أثبت العلماء باستخدامه أن البروتونات والنيترونات [1] يمكن تحويل أحدها إلى الآخر . وكان لقوته العالية أثر كبير في مساعدة العلماء في الكشف والبحث حتى أن الدكتور ارنست س . لورانس وهو الذي وضع تصميمه أعلن عن تصميم جهاز جديد هو « محطم ذري » ضخم يعمل بقوة تتراوح بين ستة وعشرة بليون إلكترون فولت . وسيكون للجهاز الجديد مغناطيس دائري يبلغ قطره مائة قدم ويزن حوالي ألف وثلاثمائة طن ... والاسم الذي أطلق عليه هو « بيفاترون » Bevatron — (وهو مشتق من بليون إلكترون فولت) .

والى الآن لم تبحث لجنة الطاقة الذرية في أمريكا تكاليف إنشائه التي تبلغ حوالي مليون ونصف مليون من الجنيهات ولا المكان الذي سينشأ فيه .

* * *

وفيما يلي بعض ما ساعد سيكلترون جامعة كاليفورنيا في إتمامه من أعمال رائعة خلال عمره القصير الذي لم يتعد السنة .

(١) تحطيم نواة الذرة الى حوالي ثلاثين من الدقائق . أي عشرة أضعاف عدد الدقائق التي كانت معروفة قبل الحرب .

(٢) كشف العلماء به عمليات ذرية جديدة وأكثر تعقيداً من العمليات التي شوهدت من قبل في تحطيم نواة الذرة

(٣) أبان الطريق لصنع مائة من النظائر الاشعاعية الجديدة التي لا يمكن إنتاجها في المصانع الذرية

(٤) أكد لأول مرة نظرية هيزبرج التي تقول بامكان تحويل النيترونات الى بروتونات ثم ثانية الى نيترونات

(٥) أنتج بمساعدة « غرفة ويلسون » الصورة العلمية الأولى لسنة ١٩٤٨ وهي صورة أكمل تحطيم للذرة توصل اليه الانسان

جمال الدين محمد موسى

(١) البروتونات دقائق ذرية موجبة التكهرب في حين أن النيترونات دقائق ذرية متعادلة كهربياً ووزن النيترون يساوي تقريباً وزن البروتون وهذين النوعين من الدقائق الذرية توجدان في نواة الذرة

فهرس الجزء الاول

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

١ الروحانية وتطورها عند البدائيين وفي العصر القديم : ا . م

٥ نظرات في النفس والحياة — نظرات لابرويير : ع . ش .

١٢ مضاعفة شحنة النواة

١٨ الشلال (قصيدة) عدنان مردم بك

١٩ دماء الذبائح غذاء للانسان صالح : عوض جندي

٢٥ الشخصية الموسيقية المصرية : فؤاد محمد شبل

٣٠ الفلال المعمرة

٣٢ يوجنا مايو

٣٣ الاسكوريال

٣٨ فيتالي : (قصة) تأليف جوتفريد كلر : ترجمة عبد المنعم صادق

٤٨ روبرت بويل

٤٩ برشلونة : محمد رجب البيلي

٥٧ حجمة من العصر الجيولوجي الاوسط : كشف علمي جديد

٥٩ أين المفر : اسماعيل مظهر

---

٦٥ مكتبة المقتطف ★ تاريخ العالم : اسماعيل مظهر . بيت العلم والادب : وديع فلسطين

٦٩ أخبار علمية ★ الفيتامينات.وعمر الانسان . ابادة الفيران . البيفاترون . جمال الدين محمد موسى

لحق المقتطف

رسالة الشاعر ابراهيم الابياري

ابراهيم الأبياري

رسالة الشاعر

طبع بمطبعة النقد والتقدم

١٩٤٩

رسالة الشاعر

تقدمة

الحياة أهداف ، والفلاح معقود بناصية ذوي الجِدّ ، ومع الجَنَف عن الجادة وخبط العشواء ، لا إلى غاية ، الاضمحلالُ والهُون .

لَقِيَ ذلك الناهضون بأعباء الأمم ، فتبينوا مقاصدهم وعبَّدوا السبل والمناهج إليها . فالناس فيها انسياب صغار الجداول ، لا تلبث أن تلتقي عن كثب في مجرى واحد .

لم يخص الداعون ناحية دون ناحية ولا فعلاً دون قول ، ولا جِدًّا دون لهو ، إلاّ جعلوا منه سبيلهم إلى منشود غايتهم .

هذا مع الوضع المرسوم ، والقصد المُرسَى . أما مع التوزع والبلبلة ، وفقدان المعالم والغايات ، فالأمور الى شتات .

وتميز أمةً عن أمة ، أولاها قد استوت على قدميها ، والثانية لما تحسّ مكان القدمين من جسمها ، بقُرب المَيزة من أهدافها ، وجمعها آحادها على مُرادها .

واذا رأيت أنّا لازلنا كاين على اليدين والفم ، فرجعُ الأمر في ذلك إلى أنّا لمّا نتبين إلى اليوم أغراضنا في جلاء ووضوح ، أو لأنّا أضلّتنا السُّبل الى ما نريد .

*

تحمل الألسنةُ في ذلك التوجيه الشيء الكثير ، مما يصدُر عنها من قول ، يكون نثراً ويكون شعراً ، تتلقاه الآذان ، وتَعيه القلوب ، فتنقاد له وتهتدي بهديه .

والنثر والشعر ، وإن صدرا للقول وسجاله ، وعبرا لترويح النفوس ونزهة الخواطر ، أو لغير هذا وذاك من لبانات الناثرين والشاعرين وأوطارهم ـ وأكاد أقول : لحياة الأدباء خاصة ـ فهما لذلك الغرض الاجتماعي أجدر ، وبه أولى ، وعليه أقوى .

وما أقسى على الأديب أن يعرف مكانه هذا من الصفوف ، إذ الناس غيره كلٌّ إلى جهد خاص معنيٌّ به ، لا يلتفت معه إلاّ في القليل لهذا المعنى الاجتماعي ، الذي به النهوض والسبق ، والذي سلاحه القول الجاذب ، واللسان الخالب .

ويا كُثر ما نرى هؤلاء الذين تخلفوا عن الاتصال بالحياة الاجتماعية مستهلّ حياتهم ، سرعان ما يهشّون ، حين يجدون لهم بين أممهم مكاناً تتهيأ لهم أسبابهُ ، فيؤدّبون ألسنتهم على القول ، وأقلامهم على الكتابة . وما بغيرهما يأخذ الناس عنهم ويصيخون لهم .

* * *

يجهل الأديب حقّ أمره إذا ظن أنه لغير المجتمع يعيش .

ويغبن الأديبُ نفسه إذا لم يؤمن أنّ ماله في غير هذا فهو فُرجة المُضيق ، وتندُّر المُتلهّي ، وإراحة المُستروح .

*

نريد أن نرى للأدب سيادة ، ولا سيادة للأدب إلاّ أن يعرف الأدباء أن مكانهم مع القادة والزعماء . ولن تنتهي إليهم مقاليدُ الأمور ، إلاّ إذا كانت لهم العُرجة الأولى ، والكلمة السابقة ، وعاشوا المجتمع من حولهم ، ثم لفكرة ينفحون عنها ، وكان لهم مع هذا إيمان وإقدام ، ثم نفوس كبيرة لا تباع ولا تشرى .

*

هذه هي رسالة الكاتب أو الشاعر في الحياة . ولنا في الشعر كلمة ، إلى عودة قريبة سنقول فيها عن النثر أخرى .

موازين الشعر

خضع الشعر لموازين ، هي مع الحاضر على غرارها في الماضي ، مع تلوين في الأسلوب ، وتحوير في الفكرة . ذلك عدا نظرات خاطفة جريئة جاءت على غير هذا النهج الموروث في قدر الشعر وتقويمه .

وقد رأينا قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » ، والقيرواني أبا علي الحسن بن رشيق في كتابيه « العمدة » و « قراضة الذهب » ، وابن عبد ربه أبا عمر أحمد بن محمد في الزمردة الثانية من كتابه « العقد الفريد » ، والعسكري أبا هلال الحسن بن عبد الله في كتابه « الصناعتين » . رأينا هؤلاء جميعاً ومن لفّ لفّهم ، مع هذه الموازين لا يحورون عنها .

فهم إذا نظروا للشعر نظروا إلى عروضه ووزنه ، أو غريبه ولُغته ، أو معانيه ومقاصدها ، ثم مازوا بعد هذا جيّده من رديئه .

ذلك شيء ألفناه عنهم ، وتأثرناهم فيه ، مع خروج قليل على ما رسموه ، لا يقفنا منهم ببعيد .

وفي خَلَدي أن هذا الفن ، فن نقد الشعر ، قعّد قواعده الأولى الشعراء المتقدمون أولاً ، بما ثار بينهم ، ثم جاء العلماء في أعقاب الشعراء ، فجمعوا ما تناثر من ذلك وضموا إليه ما أخذهم ، ومن هذا وذاك كان هذا الفن .

* * *

نقصد بما ثار بين الشعراء نحو ما كان بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة التميمي حين نزل علقمة بامرىء القيس ، وكان صديقاً له ، وتلاحيا أيهما أشعر ، وانتهيا إلى أن يجعلا هذا فرسه وذاك فرسه ، وارتضيا أم جُندب ، امرأة امرىء القيس . لتفصل بينهما . فقال امرؤ القيس :

خليليَّ مرَّا بي على أم جندب نقضِّي لبانات الفؤاد المعذَّبِ

إلى أن قال :

فللسوط ألهوبٌ وتقـاق درَّةٌ وللزجر منه وقعُ أخرج مُهْذَبِ

وقال علقمة :

ذهبتَ من الهجران في غير مذهب ولم يكُ حقًّا طول هذا التجنبِ

الى أن قال :

فأدركهنَّ ثانياً من عنـانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلب

فقالت أم جندب لامرىء القيس : علقمة أشعر منك . قال : وكيف ؟ قالت : لأنك جهدت فرسك بسوطك وزجرك ، ومريته فأتعبته بساقك . وأما علقمة فأدرك فرسه ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوطه ولم يتعبه .

*

ومثل هذا ماكان بين النابغة وحسَّان بسوق عكاظ ، حين أنشد حسان النابغة :

لنا الجفنات الغرُّ يلمعنَ في الضحى وأسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرِّق فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أقللت جفانك وسيوفك — لأنه قال : جفنات ، وهي لأدنى العدد ، والكثير جفان . وقال : وأسيافنا وأسياف جمع قلة ، والكثير سيوف — وقال له : فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك — لأنه قال : ولدنا بني العنقاء وابني محرق . فترك الفخر بآبائه ، وفخر بمن ولد نساؤه .

*

وقريبٌ من هذا وذاك ماكان من أهل المدينة حين قدم عليهم النابغة فأسمعوه على لسان قينة مغنية شعره الذي أقوى فيه :

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولتْه واتَّقتنا باليدِ

بمخضّب رَخْصٍ كأنّ بنانه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقدُ

ومدت الجارية في الضربين صوتها . فانتبه ولم يعد الى ما وقع فيه .

*

ويذكرون أن الذي هاج الشر بين جرير وعمر بن لجأ ، أن ابن لجأ حين أنشد أرجوزته التي يقول فيها واصفاً إبله :

تَجُرُّ بالأهون من إدنائها جرَّ العجوز الثني من خفائها

قال له جرير : أخفيت مَرَّها . قال : فكيف أقول ؟ قال : قل :

جرّ العروس الثني من خفائها

فقال له ابن لجأ : لقد قلتَ أسوأ من هذا . قال ، وماقلت ؟ قال : قولك :

وأوثق عند المردفاتُ عشيّةً لحاقاً إذا ما جرَّد السيفَ لامعُ

فجعلتهنّ مُردفات غُدوة ، ثم تداركتهن عشية وقد نَكِحنَ .

* * *

ذاك شيء مما عاب به شاعرٌ شاعراً ، أو تُرك الحكم فيه لغيرهما يفصل بينهما . وقد رأيته لا يخرج عما أجملنا أولاً ، وأنّ الأمر فيه جرى على النسق المعهود .

أما من مآخذ العلماء على الشعراء ، فقد أدركوا على عمرو بن أحمر الباهليّ قولَه يصف المرأة :

لم تدر ما نسجُ اليرندج قبلها ودراس أحوص دارس متجدّد

فقالوا : ظنّ اليرندج ، وهو جلود سود ، شيئاً يُنسج .

وأدركوا على لَبيد قوله :

ومُقام ضيق فرّجته بمقامي ولساني وجدَلْ

لو يقوم الفيل أو فيّاله زلّ عن مثل مُقامي ورحلي

وقالوا : ظن أن الفيّال أقوى الناس ، كما أن الفيل أقوى البهائم .

وأخذوا على الأخطل قوله في رجل من بني أسد يمدحه ، وكان يُعرف بالقَيْن ، ولم يكن قيْناً ، فقال فيه :

نِعم المجيرُ سماك من بني أسـد بالمَرْج إذ قتلت جيرانها مُضرُ
قد كنت أحسبه فيناً وأبؤه فالآن طُيِّر عن أثوابه الشرر

وقالوا: هذا مدح كالهجاء.

وأخذوا على أبي مُحيلة الراجز قوله في وصف المرأة:

مُرَيَّنة لم تلبس المَرقَب ولم تذق من البُقول الفُستُقا

فجعل الفستق من البقول، وإنما هو شجر.

* * *

هذا قَليلٌ من كثير من مآخذ العلماء على الشعراء، وفيما أوردنا غناء، فكله من هذا وإليه.

على هذا جرى النقد وكانت هذه مادته. ولم نرَ جديداً عليه مع امتداد الزمن وانفساح الأجل.

وهذا لاشك جميل، في ظله ضمان لسلامة الشعر، وأمن من سقطات الشعراء، ولكن مثلنا في هذا مَثل الجندي، يقضي الى الأمد المضروب له أيامه، في حركات وسكنات، ومن ورائه مؤدِّبوه يعدُّون عليه الهفوات ويُعِدُّونه بالإرشادات، ثم يعود إلى حيث أتى، ولم تكتب له في صحيفته الحربية كلمة.

لقد حذق الجندي الكرَّ والفر، وأجاد أساليب الكفاح. ولكنه لم ينزل إلى ميدان يسجل فيه بتلك اليد المدربة، والسيف المشحوذ، عملاً يكسبه المجد والفخر.

نعني أن الشاعر ليس عند الإجادة ينتهي أمره، وليس مع الإفصاح يبلغ كل شيء.

هذا كله إعداد وتكوين، وما رأيناه جاء من النقد جاء لهذه المرحلة وحدها من حياة الشاعر، وما وجدنا بعدها لناقد نقداً.

كأنَّ كل همِّنا هو أن ننشئ قائلاً مبرأً من الآمة، سليماً من العاب، بعيداً من الذام.

ثم ماذا يراد بعد هذا من القائل ؟ وأي شيء نرجوه منه؟هذا ما لم يلتفت إليه إلاّ في قليل من أمر قد يكون متعلاً بما قبله .

* * *

للشاعر الذي له ببيانه ملك العقول ، والولوج الى القلوب « رسالة » علينا أن نحاسبه عليها في نقدنا له .

وليست هذه الرسالة بأقل شأناً من النظر إلى جودة بضاعته ودقة صناعته ، بل إن شاعراً يحمل إلى ضعف بيان ، رسالةً يسعى إلى أن يجمع الناس عليها ، خير عندي من شاعر يمضي بقول معسول ، وكلام جيد الصوغ ، دون أن يهدف الى هدف .

* * *

الشاعر والكاتب من حماة البيان ، ومنبتي الأركان ، والكاشفين الغشاوات ، والمبصرين بالهدايات ، والجامعين الى الرأي ، والداعين الى ما يدينون ، والمنفرين ممّا يستهجنون ، بما وهب الله لهم من قول شهيّ ، ولفظ طلي ، له وقعه في النفس ، ولذته الحس .

فإذا رأيت شعراً أو نثراً في غير رسالة يحمل لواءها الشاعر والكاتب ، فتلك شجرات لم تثمر ، لها الاسم وما حملت غيره .

وهذه جملة من معروفي الشعراء ، في الحديث عنهم ما يفصّل هذا الإجمال ، ويكشف عما نريد .

أمرؤ القيس

دعني من الحديث حول اسمه ، وما أضيف اليه من ألقاب ، ودعني من وقوفه على الديار ، وبكائه على الأطلال ، وسبقه الشعراء في تشبيه الفرس بالعُقاب ، وقلوب الطير بالعنّاب ، والنساء بالظباء ، فذلك له مكان آخر .

وخلِّ بيني وبين أن أجلو لك نشأته ، وأُوجز حياته في غير إخلال . فنحن على أن نعرف امرأ القيس صاحبَ رسالة ، أحرص منّا على أن نعرفه في صور جميلة من القول .

* * *

للمؤرخين قصة في نزوح آل امرىء القيس الكنديين عن اليمن الى نجد . يفتتحونها بتلك الفوضى التي شاعت في بكر ، ووقف الناس فيها وجهاً لوجه ، خصوماً يتقاتلون ، لا أمن لهم الى سلطان يحميهم ، ولا طمأنينة الى رئيس منهم يدفع العادية عنهم ، وردّ كيد الأقوياء وغلبة السفهاء .

فرأى ذوو الرأي منهم أن يجعلوا الأمر الى سلطان من غيرهم ، يُعطونه الشاة والبعير ، يعيد الحياة آمنة مطمئنة ، بعد أن ملئت ذعراً واضطراباً ، ويسوس الناس بالعدل ، بعد أن فقدوه في ظل من وكلي عليهم من ذوي قُرباهم .

وأتوا « حسّاناً » تُبّع اليمن . فملّك عليهم « حُجراً » آكل المرار ، من أجداد امرىء القيس . وبحُجر هذا بدأت هذه الأسرة الكندية تنزل « نجد » ، وكانت لحُجر جولات مع المناذرة ملوك الحيرة ، والغساسنة ملوك الشام ، في جُند من بكر ، كُتب له معها النصر . فالتفّ البكريون حوله ، واجتمعوا على حُبّه وطاعته .

ومات « حُجر » فخلفه ابنه « عمرو » يسوس أمر « كندة » . ثم مات « عمرو » فولي بعده ابنه « الحارث » فغزا الحيرة ، وأخرج منها المنذر ، مستعيناً بتُبّاذ ملك الفرس ،

وكان يحقد على «المنذر» حين أبى أن يدين معه «بمردك».

عزّ الحارث وعلا شأنه، وغدا مقصوداً في الملمات، مطلوباً في النجدات. يُطلب رضاه، ويُشترى جواره.

* * *

وتسوء الحال بين قبائل نزار، كما ساءت من قبل في بكر، فيهرع رجالهم الى الحارث يسألونه أن يولي عليهم ملكاً من أبنائه، يضبط أمرهم، ويقيم مُعوجهم، ويحمل الأمور الى ثبات واستقرار.

فيفرق الحارث أولاده فيهم. فيصبح «حُجر» والد امرىء القيس، على بني أسد وغطفان؛ و «شرحبيل» على بكر بن وائل وبني حنظلة وطوائف من بني دارم، من تميم والرباب؛ و «معد يكرب» على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة؛ و «عبد الله» على بني عبد القيس؛ و «سلمة» على بني قيس.

وفي نحو سنة ٥٤٠ م مات «قباذ» وخلفه «أنو شروان»، ولم يكن مزدكيًّا كأبيه، فلجأ إليه «المنذر» يستنصره على «الحارث» الذي شايع «قباذ» على المزدكية ويطلب «أنو شروان» «الحارث» فيخرج هائماً على وجهه.

وفي بني كلب توافيه منيته. فيقضي بيد «كلب»، كما زعمت «كلب»، أو بفلذة من كبد ظبي، كما زعمت «كندة». وفي ذلك يقول الوليدُ بن عديّ الكندي:

فسوّوا فكانَ شواؤهم خبطاً له إن المَنيّة لا تُجلُّ جليلا

وتَعيي حالُ أبناء «عمرو» وتتفرق كلمتهم. فيقتل «سلمةُ» «شرحبيل»، ثم يهلك سلمةُ على يد المنذر.

ويبقى «حُجر» على بني أسد. وكانت له عليهم إتاوة لا يقوون عليها في كل سنة. فغبر دهراً، ثم بعث إليهم جابيه، فنعوه ذلك. و «حُجر» يومئذٍ بتهامة. وضربوا رسله وضرجوهم ضرجاً شديداً قبيحاً.

فسار إليهم «حُجر» بجُند من ربيعة، وجند من جند أخيه «قيس» و «كنانة».

فأخذ سراتهم ، وصيرهم الى تهامة ، وجعل يقتلهم بالعصا ، فسُمُّوا عبيدَ العصا . وأباح الأموال ، وحبس منهم عمرو بن مسعود ، وكان سيداً ، وعَبيد بن الأبرص الشاعر .

وقام عبيد بين يدي الأبرص يستلين قلبه ويقول :

يا عينُ فابكي ما بَني أسد فهم أهلُ الندامه
أهلُ القباب الحمر والنَّـ ـعم المؤبَّل والمدامه
في كل وادٍ بين يثـ ـرب فالقصور الى اليمامه
تطريبُ عانٍ أو صيا ح محرِّق أو صوتُ هامه
أنت المليكُ عليهمُ . وهم العبيدُ الى القيامه
ذلُّوا لسوطك مثل ما ذلَّ الأشيقر ذو الخزامه

فرقَّ لهم حجر ، وبعث في إثرهم ، فأقبلوا . فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر « حُجر » فهجموا على قُبَّته . وأقبل عليه « علباء بن الحارث الكاهلي » ، وكان « حُجر » قد قتل أباه ، فطعنه فأصاب كَبِدَه .

ونادى بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس ، أنتم إخواننا وبنو عمِّنا ، والرجل بعيد النسب منَّا ومنكم . وقد رأيتم ما كاد يصنع بكم هو وقومه .

فشدُّوا على عجائزه فزقوها ، ولفوه في ربطة بيضاء ، وطرحوه ظهر الطريق . فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه ، وأخذوا جواريه ونساءه ، وملئوا أيديهم بالغنائم .

* * *

هذا حديث الآباء وهذه أحداث أيامهم . فأين امرؤ القيس ؟

كان امرؤ القيس لما قُتل أبوه غلاماً قد ترعرع ، مقيماً في بني حنظلة ، لأن أمَّه كانت امرأة منهم ، كما روى الهيثمُ بن عديّ . ويروي له عندما طُير اليه النعي :

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملكَ الحُلاحِلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا يا خير شيخ حسباً ونائلا

وفي رواية أخرى للبيتين ، أن امرأ القيس كان بدمُّون من أرض اليمن ، في قصفه ومجونه . فلما أتاه نعي أبيه ، قال :

تطاول الليلُ على دَمُّون دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبُّون

أما عن خروج امرىء القيس الى دَمون ، فيروي ابن الكلبي أن « حجراً » كان طرد امرأ القيس وآلى ألاّ يقيم معه ، أنفةً من قوله الشعر . فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ العرب ، من طيء وكلب وبكر بن وائل . فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه ، وخرج الى الصيد فتصيد . ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قِيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير فيرتحل عنه الى غيره ، حتى انتهى الى دمون ، وفيها وافاه خبر مقتل أبيه .

ويضيف الرواة سبباً آخر لغضب «حُجر» على ابنه ، لم يكن غير فُحشه واستهتاره واتهامه بزوج من زوجاته . ويقولون : إن «حجراً » دفعه الى مولى له يُدعى ربيعة ليقتله ويأتيه بعينيه . ولكنّ المولى كان يعلم مدى غضبة الآباء ، ولأنّ قلبه لامرىء القيس حين سمعه يقول :

لا تتركنّي يا ربيعُ لهذه وكنتُ أراني قبلها بك واثقا

فلاه . وعاد الى أبيه بعيني جؤذر . ولما أحسّ جزع الأب كشف له عما أخفى . فضمّ « حجر » اليه ابنه ثم عاد فطرده .

* * *

هذا هو الشطر الأول من حياة امرىء القيس ، عاش فيه للهو والمجون ، وشغل بالنساء ، فيوماً مع أم مالك يقف على أطلال ديارها فيقول :

قفا نسأل الأطلالَ عن أمّ مالكٍ وهل تخبر الأطلالُ غيرَ التهالكِ

ثم يتشوّق الى أم جندب زوجه فيخاطب خليليه :

خليليّ مرّا بي على أم جُندب لنقضي لُبانات الفؤاد المعذّبِ

وتعروه ذكريات سليمى فيشكو :

يا بؤس للقلب بعد اليوم ما آبَهْ ذكرى حبيب ببعض الأرض قد رابَهْ
قالت سليمى أراك اليوم مكتئباً والرأسُ بعدي رأيت الشيب قد عابَهْ

ثم يذكر أيامه مع « الخنساء » فيحكي عنها:

قالت الخنساء لما جئتها شابَ بعدي رأس هذا وأشتهب
عهدتني ناشئاً ذا غرّة رجل الجُمّة ذا بطن أقبّ
وهي إذ ذاك عليها مئزرٌ ولها بيت جوار من لُعَب

ويحضره موقفٌ له مع « رقاش » فيصفه :

قامت رقاش وأصحابي على عجل تبدي لي النَّحر واللّبات والجيدا

ويجلس الى نفسه يعرض لياليه مع « الرّباب » و« فَرتَني » و« لميس » فيقول :

لمن الديارُ غشيتها بسجام فعبرتين فهضب ذي أقدام
دار لهند والرّباب وفَرتَني ولميس قبل حوادث الأيام

ويغلبه هوى « هر » فيملي عليه :

وهرٌّ تصيد قلوبَ الرجال وأفلت منها ابنُ عمرو حجر
رمتني بسهم أصاب الفؤاد غداةَ الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعي كفيض الجُمان أو الدُّر رَقراقه المُنحدر
كأنّ المُدام وصوبَ الغمام وريحَ الخزامى ونشر القُطر
يُعلّ به بردُ أنيابها إذا طرّب الطائر المُستحر

ويذكر فراق « هر » فراق « سلامة » و « قذور » فيقول :

عفا شطب من أهله فعزور فربولةَ إن الديار تدور
فجزع محيّاة كأن لم تقُم بها سلامة حولاً كاملاً وقذور

ويعود إلى « بسباسة » ينشد زعمها فيه :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرتُ وألاّ يُحسن السرَّ أمثالي
كذبتِ لقد أصبى على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزنَّ بها الخالي

ولشوقه « سعاد » فيقول :

لعمري لقد بانت بحاجة ذي الهوى سُعاد وراعت بالفراق سُرُوحُها

ويعتب على «ليلى» جفوتها في قوله :

تنكرتْ ليلى عن الوصلِ وناَت ودّتْ معاقد الحبلِ

وتقرأ معلقته فتجد فيها ذكراً للحويرث وأم الرّباب في بيته :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها ، أمّ الرّباب بمأسلِ

ثم لعُنيزة التي يقول فيها :

ويومَ دخلتُ الخِدرخدرَ عُنيزة فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجلي

ثم لفاطمة في بيته :

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلل وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

والى هذا العبث النسائي وصف امرؤ القيس جريه في إثر الوحش :

خرجنا نريغ الوحش حولَ قُسالة وبين رُحَيّات الى فج أخرب

(قسالة ورحيات وأخرب : أمكنة)

فأنكست سرباً من بعيد كأنه زواهر عيد في ملاء مُهذّب

كما وصف فرسه ومقعده منه بمثل قوله :

فقلتُ لها آثارهنّ بحاصبٍ وغيبة شؤبوب من الشد مُلهب

فللساق ألهوب وللسوط درة وللزّجر منه وقعُ أهوج مُنعب

وكذلك وصف إقدامه في مثل قوله :

ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحى على هيكل نهد الجُزارة جوّال

وقوله :

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

* * *

أجل ، لهذا ومثله عاش امرؤ القيس ، هذا الشطرَ الأول من حياته ، لم يتمد في قليل ولا كثير عنهُ ، ولا التفت لغيره .

وبلغه مقتل أبيه فهبّ يطلب بدمه ، ويستنصر على قاتليه . أو قُل : يسعى لملك خلا الطريقُ أمامه اليه . فقد كَنع إخوتـه ، وكانوا يكبرونه سنّاً ، ورأوا الخطب فوق قوّتهم ورأى هو الفرصة مواتية . وإنما هي جولة أو اثنتان يترع بعدها على عرش أبيه ، ويستبدل بتلك الرعية من الشذّاذ رعية فيها الوجوه والسادة .

ذلك عندي ما دفع بامرىء القيس دون إخوته ، إن ما أقدم عليه . وقد كان فيما فعله أبوه معه ما ينكّب به ويصرفه عن هذا السبيل ، إن كان الأمر الى الثأر ، وإلى الثأر وحده .

* * *

ومن هنا بدأ الشطر الثاني من حياة امرىء القيس .

أخذ امرؤ القيس يتهدّد بني أسد ويتوعدهم ويهجوهم لغزوهم في شعر كثير منه :

أتاني وأصحابي على رأس صيلع ... حديثٌ أطار النوم عني وأنعما

فقلت لعجليّ بعيد ما به ... تبيّن وبيّن لي الحديث المُمجّما

فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل ... أباحوا حمى حُجر فأصبح مسلما

وتظن بنو أسد أنها لا طاقة لها به ، فتُوفد عليه الوفود يعرضون عليه الفداء في صور شتى ، أو المُهلة حتى تضع الحوامل . فيجيبهم الى النظرة ويأبى الفداء .

وكان في الوفد قبيصة بن نُعيم فقال له متمثلاً :

لعلّك أن تستوخم الموتَ إن غدت ... كتائبنا في مأزق الموت تمطر

وأنت ترى أن القوم لم يعرضوا على امرىء القيس عرض أبيه فيهم . فكأنهم أقرّوا الثائرين على ما فعلوا ، وسلّموا زعامة الكنديين عليهم ، وتمضوا أيديهم من هذا الأمر ، وجاءوا الى امرىء القيس لارعايا مُستبيين مسلمين ، بل راضين خلاصهم ، طامعين في أن يشتروا الدم المراق ، بعُروض وأرزاق .

وعبّأ امرؤ القيس جموعاً من تغلب ، وأدرك بني أسد على بعض المياه ، فأنكى فيهم ، ففرّوا مع الظلام . وأراد امرؤ القيس السير خلفهم ، فأبى عليه ذلك رجال بكر وتغلب ، وانصرفوا عنه الى ديارهم .

ويحسب البكريون والتغلبيون الخطبَ ثأراً ، ويراه امرؤ القيس عرشاً : فيخرج إلى

مرثد الخير ، قَبيل من أقيال حمير ، يستنصره . فيمده ، وتعاجله المنية دون أن يُعين . ويخلفه قرّمل بن الجُسيم ، فيجيب امرأ القيس الى ما طلب على غير رضى . ثم ينفض أكثر هذا الجند عنه بتأليب المنذر عليه .

*

ويقصد امرؤ القيس العشائر يلتمس العون ، فيؤم أمّ سعد بن الضباب ، فيكرمه ، فيقول فيه :

يفاكهنا سعدٌ ويُنعم بالنا ويغدو علينا بالجفان وبالجُزُر

ويرى امرؤ القيس العون عند هذا ، فيتركه الى المعلى بن تيم . واذا ما أكرم المُعلّى وفادتَه انطلق لسان امرىء القيس بمدحه :

كأني اذ زلتُ على المُعلّى نزلت على البواذخ من شمام

ثم يساء اليه فيخرج إلى عامر بن جوين . ولكنه يخافه على نفسه ، فيفرّ الى بني ثعل ، ثم إلى نزار . فيدله رجل منهم على السموأل . ويكتب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ، لإيصال امرىء القيس إلى قيصر ، ملك الروم.

ويمد قيصر امرأ القيس بجيش . ويوغر الطِّماح بن قيس الأسدي صدر قيصر ، فيكيد لامرىء القيس . ويختار الرواة حديث الحُلّة المسمومة . فيقضي امرؤ القيس فيها نحبه .

* * *

لحياة امرىء القيس كما رأيت شطران ، شطر لهذا اللهو والمُجون ، على رأس شرذمة من الصعاليك . والشطر الثاني في رحلة وتطواف ، من قبيل الى قبيل ، يحتفى هنا ويخيب هناك .

وكان لهذين الشطرين شعره . أشبع في الأول نزواته وجرى مع طيشه ، وعاش في الثانية مدّاحاً مجّاءً ، يشكر المحسنين ويذم المخيبين . عدا قليل صدر عن النفس ، في بعض ما تجد وتحس .

وجُلّ ما قال امرؤ القيس لا شك جميل فيه قوة وفيه رصانة ، له هزة ومعه طرب .

ولكن أهذه هي رسالة امرىء القيس ؟ أو لهذا كان شعره الذي شغل الناس به ولا يزال يشغلهم ؟ وهل كل ما يعنينا عنه هذا التراث الذي كان خالصاً له ، ليس للناس حوله منه نصيب ؟

لقد كان العصر قلقاً مضطرباً ، تسوده فوضى وبلبلة . فقد فيه الناسُ أساليب الحكم المنظم ، واختلت موازين العدل ، وأصلّ الناس الموازع ، واطرحوا الثقة جانباً بسرواتهم حين لم يجدوا منهم رُعاةً صالحين ، وقادةً مُنصفين ، فمدُّوا اليدَ على كُرهٍ يلتمسون عادلاً من غير قومهم ينشر عدلاً افتقدوه ، ومُنصفاً يبسط إنصافاً حُرموه .

وكانت هذه النفوس التي عرفت العدل والظلم ، والإنصاف والجَوْر ، والحق والباطل ، والتي اشترت من تحكمه عليها اشتراه ، حَرِيةً أن تعُدَّ على الحاكم خطواته ، وألاّ تغفل ساعة عن النظر فيما يأخذ فيه من فعل أو قول .

كانت هذه النفوس التي أدَّبتها الحوادث ، ونشأتها المحن جديرةً ألاّ تُخدع عن أمرها ، وألاّ تفي عن هبَّتها ، إن أحست ضيماً ، أو سيمت خسفاً .

لذلك رأيناها لم تسكت على جنف الغريب النازح — كما لم تصبر من قبل على ظلم المُواطن الفادح ، فتنكرت للجور ، وكان من حديثها معه ما كان .

وليس الأمر أمر ثورة ، ولكنه عصر فدحته أعباء ، وآذته نُظُم كان يراها لا تجري مع مطالبه وأمانيه . ولو زادتنا المراجع لرأيناك عنه بياناً ، ولكنه مع تلك الإشارات واللمحات ، يدلنا على حقبة من تلك الحقب الصاخبة التي تمتحن فيها الشعوب ، فتخرج منها إمّا الى سؤدد ورفعة ، وإما الى ذلة وهوان . عاش الناس فيها في صراع يهدأ ليستجم ، ويتوزَّع ليتجمع ، ويخمد ليذكو .

فأين كان امرؤ القيس من هذا كله ، وأين وجداته الشاعري ؟

أما في النصف الأول فإنا لا نتم لهذا رجماً ، بل يكاد القلم يكتب : ان امرأ القيس بحياته كان سبباً من أسباب الانقلاب الذي جنى أبوه شرَّه .

أنسيت كيف عدا امرؤ القيس على الحُرُمات ، واقتحم الخدور على الزوجات ؟ ألم تسمع الى قوله:

فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها عليه القَتام سيِّئَ الظنِّ والبالِ
يغطُّ غطيط البَكر شدَّ خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتَّال

أو إلى قوله في معلقته :

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضعٌ فألهيتُها عن ذي تمائم محْوَلِ

* * *

أو نسيت أنه تزعَّم شرذمة عاش معهم على ما يُنتهب ويُبتز ؟

ثم أنسيت بعد هذا وذاك شعراً لم يُصنع لحكمة أو سداد ، وإنما قيل في التشهير بما يحرص الناس على أن يُستر ، ويختمون أن يُذيع .

أما عن النصف الثاني ، فأنا لا أكاد أعدُّ ما صدر عنه فيه شعرَ شاعر . وقد عوَّدنا ناظم يُكثر من قول الشعر ولا يُجيده ، أن يُرسل لنا مع أول كل شهر أبياتاً يسألنا بها شيئاً . فكنت أذكر به امرأ القيس ، مع ما فرَّق الأمر بينهما فيه ، من إجادة وإسفاف . ولكنهما في الغرض سيَّان . فهذا يسأل قروشاً للعيش ، وذاك يسأل جنوداً للبطش . ولو سوَّى البيان بينهما لتعادل الشعران قوة . ولكن أين الغرض ؟ وأين الدافع النفسي السامي ؟

ما كان أجدر امرىء القيس أن يضبط لسانه ويسمو بشاعريته عن السؤال والضراعة ، وما كان أحراه أن يجعل الشعر للكرِّ والفرِّ كما جعله في بعض الأمر .

أفترى بعد هذا أن امرأ القيس عاش لرسالة ؟ .

أما إنه لو التفت إلى ما حوله ، واستجابت نفسه لتلك الصيحات الآلمة ، وشارك بوجدانه الشاعري ، وكشف لنا عمَّا يجده في نفسه لهذا الذي خاض الناسُ غمراته بحاراً من دماء ، كان لهم أو عليهم ، لعددناه مع أصحاب الرسالات من الشعراء ، ولخلَّد مع ألفاظه الشعرية معاني تعيش في صدور من تعمر قلوبهم بالوجدانات ، التي لا يُعرف الشعراء إلاَّ بها ، بل إن الشعراء بها يُعرفون قبل أن يعرفوا بالقول المصول واللفظ الموزون الجميل .

في الحق لقد عاش امرؤ القيس ذا أذن صمَّاء ، لا يحمل حِسَّ الشاعر ووجدانه ، وإن ملك لسانه . أو قُلْ إنه عاش لنفسه . وليس هكذا يعيش الرسل من الشعراء . وما نظلم امرأ القيس غيرَ هذا مما أجمع الناس له عليه ، فهو فيه جُذيلها المرجَّب ، وحُجيرها المؤوَّب .

النابغة الذبياني

ينتمي النابغة أبو أمامة زياد بن معاوية الى ذبيان، وذبيان الى غطفان، وغطفان الى قيس.

وغطفان قومٌ ذوو مِراس وبأس شديد. عرفت جيوشُ المسلمين لهم ذلك حين تراءى الجمعان يوم ذات الرِّقاع، فانحاز كلٌّ الى ناحية، وخاف الناس بعضهم بعضاً ولم تكن حرب. وشرع الله صلاة الخوف في تلك الغَراة.

ورأينا غطفان مع الأحزاب يوم الخندق يلتفون بالمدينة محاصرين، ورأيناهم يوم ذي قرد عليها مُغيرين، ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المسلمين.

ورأيناهم أول بادىء بالغارة على المدينة يوم ذي القصة. وأبو بكر يلي أمر المسلمين خليفة عليهم.

وعرفنا لهم حروباً شتّتها البطون، وصليتها العشائر، وأخرى ثارت بينها وبين غيرها من القبائل تُعيي الحصر، وليس من اليسير أن يُحيط بها إحصاء.

*

هؤلاء هم غطفان، أهل الدائرة والثائرة، يكاد يكون لهم في كل فِنيّ الى جوارهم دم. وهكذا كان العصر الذي يظلهم، ما طلعت له شمس إلاّ على حرب، ولا غربت إلاّ مع أهبة لأخرى.

وبين ذبيان خاصة وعبس كانت حرب داحس والغبراء. بقيت أربعين سنة، لم تُنتَج لهم فيها ناقة ولا فرس — كما يروي أبو الفرج.

ذكر المؤرخون لهم فيها أياماً، دارت فيها الدائرة لعبس يوماً ولذبيان يوماً، وعدّوا منها يوم المريقب، ويوم ذي حُسا، ويوم اليعمرية، ويوم الهباءة، وأياماً أخرى غيرها. أشبعوا فيها سباع الطير من لحومهم، وسقوها قانياً من جاري دمائهم وانطلقت فيها

الاسكوريال

El Escorial

على بضع فراسخ الى الشمال والغرب من « مدريد » تقوم تلك الجبال الشاهقة في وادي الرامة ، ذلك الوادي الذي تنتهي عنده سلسلة الجبال الفاصلة بين قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة . انه لصقع من أصقاع الأرض عجيب التكوين ، فهو أجرد موحش ، يكاد يكون خلواً من الزروع ، ويلوح كأنه بمعزل عن بقية العالم ،

إن لتلك الجبال أسرارها . فان كثيراً من السياح قد طوّفوا بأنحائها من غير أن يصلوا الى غاية ، وقدّر لهم أن يغيبوا في النهاية في مهاويها الأخيضرات الغبر . ناهيك بما نسج الخيال عن بركها العميقة البعيدة الأغوار ، ومخلوقاتها العجيبة والهول المخيفة ، وأفاعيها الضخام التي تبلغ من ثقل الجثة مبلغ دوحات الصنوبر الباسقة .

عند قدمي وادي الرامة ، الذي تهب عليه العواصف الهوج من خلال الجبال المحيطة به ، تقع على ذلك الأثر الذي شيدته العبقرية البشرية . تجد ذلك البناء المنفرد المعزول عن عالم اللغب والضجيج ، وكأنه العجبة الثامنة من عجائب الدنيا . وهو ككل ما تخلق العبقرية رهن بحكين ، فالى جانب الذين يعتقدون انه عجيبة الدنيا الثامنة ، أولئك الذين يرمونه بأنه مثال الوحشة ، وانه صحراء مجرودة من الصوان الصلد ، وانه كابوس صبّ في قالب هندسي ، وان ما فيه من إثارات الفن ، قد جاءت بلا طعم ولا ذوق ولا حياة .

اسمه الكامل «إل سيتيو دي سان لورنزو إل ريال» El Sitio de San Lorenzo el Real ولكنه معروف عند الكافة باسم « الاسكوريال » ، نسبة الى دسكرة قريبة منه تسمى بذلك الاسم . أما إذا أردنا أن نعرف شيئاً من تاريخه وأصله ، فلا بدّ لنا من أن نعود رجعاً أربعة قرون من الزمان الى الوراء ، الى عصر فيليب الثاني ملك أسبانيا ، ذلك الملك الكفء ذو الآبية الفائقة ، الذي غازلت أوهامه كثيراً من الأعمال الرائعة ، في عصر

قلّت فيه الروائع ، وقلت فيه العقول التي تداعبها روائع الحياة .

يفكر الناس في هذا الملك اذا فكروا ، فتدور في عقولهم أنه صاحب « الأرمادا » الاسبانية، ذلك الأسطول الحربي العجيب الذي أراد أن يغزو به انجلترا ويستذلها، فقضى عليه قليل من الشجاعة وكثيرٌ من غضب الطبيعة ، فهوى في اليمّ كسير الجناح ، وأنقذت الطبيعة بريطانيا . يذكره الناس فيخيل اليهم أنه صانع تلك « الزائمة » الحربية التي تمثل الفشل يبرز من خلال الأمل الكامن في النجاح . ولكنهم لا يذكرون أنه صاحب الزائمة الخالدة : « الاسكوريال » .

لا حاجة بنا أن ندلف في مطاوي السياسة في القرن السادس عشر . ولكن يكفي أن نذكر أنه في سنة ١٥٥٧ كان الملك فيليب الثاني الاسباني في حرب مع فرنسا ، وانه في العاشر من شهر اغسطس من تلك السنة ، وهو يوم القديس « لورنس » St. Laurence : أحرز نصراً مبيناً في موقعة « سان كنتان » St. Quentin . لقد كان فيليب من غلاة الكثلكة ، ولكنه اضطرّ في أثناء تلك الوقعة أن يضرب بقنابل مدافعه كنيسة مقامة للقديس « لورنس » وأن يهدمها فيتركها أنقاضاً . وبالرغم من أنه انتصر ، ترك ذلك العمل في نفسه أثراً من التكيت زلزلت له نفسه ، وحزن له قلبه . وفي ساحة المعركة قطع على نفسه عهداً أن يكفّر عن هذه السيئة ، فيشيد للقديس كنيسة أفخم وأروع من تلك التي هدمها ، فتكون للقديس عوضاً ، ولانتصاره رمزاً وتنويهاً .

ذلك ما يقوله المؤرخون . ولكن كان من آمال فيليب التي داعبت خياله، الى جانب ذلك ، أن يقيم له ولآبائه ولأخلافه مدفناً يليق بمقام الملوكية . كذلك لا ينبغي أن نغفل عن أن ذلك الملك كان به نزعة الى التحفظ من الناس ومن المجتمع ، فكان محبًّا للعزلة والانفراد بصورة شاذة . ، ولم يفق رغبته في أن يحكم العالم ، إلاّ رغبته في أن يعيش عنه بمعزل ، فلا عجب اذا اختار ذلك المعزل البعيد بين جبال وادي الرامة ، ليقيم ذلك الأثر الباقي تحقيقاً لثلاثة أغراض معاً : فيكون منه دير ومدفن وقصر . ثلاثة أغراض ! كيف يوفق بينها المهندس والفنان ؟

وقع اختيار فيليب الثاني على المهندس « جوان بوتستا دي توليدو » :

Juan Bautista de Toledo فوفق في اختياره لأنه أدرك كيف يرضي الملك ، فيقيم له الصرح الذي داعب خياله . ولد هذا الرجل في اسبانيا ودرس هندسة البناء في ايطاليا ، ولكن عبقريته جعلته ينفلت من الأفق الذي عاش فيه معاصروه من المهندسين فلم يحتذ الأنماط الأسبانية ، بل اختار النماذج الساذجة البسيطة ، التي تؤدي على بساطتها معنى الفخامة والقوة والصلابة . فكان خير من يعهد اليه ببناء الاسكوريال ، الذي اقتطعت لبناته الصخرية من محاجر وادي الرامة ، وهنالك من صخر يسمى « بِرُوكينا » Berroquena يشبه الصوان شكلاً ، ولكن لا يدانيه صلابة ، صوّر ذلك الصّرح العظيم .

* * *

قبل أن يبدأ البناء اختار فيليب الثاني الرهبان الذين يشغلونه بعد أن يتم ، فوقع اختياره على طائفة منهم تعرف باسم « الييرونيم » ، عرفوا بالتقوى والصلاح والعكوف على العبادة ، وكانوا مقربين من أبيه الذي قضى قليلاً من أخريات أيامه في دير من أديرتهم . اتخذ خصوم منهم قرية « الاسكوريال » مقراً لهم ، حتى يتم بناء الدير الجديد ، فعاشوا في أشد حالات الكلف والجهد . ولكنهم أقاموا وجاهدوا وصبروا وصابروا حتى ضمهم الصّرح الأعظم .

* * *

بعد ست سنوات من موقعة « سان كنتان » وضع حجر الأساس للبناء الذي سيقوم عليه الدير ، حيث أرساه فيليب الثاني في العشرين من أغسطس سنة ١٥٦٣ ، ذلك الدير أو المعبد الذي أصبح فيما بعد قطعة من أروع القطع التي خلفها عصر النهضة في أوروبا .

عجّت تلك الأصقاع الموحشة بالحياة ، إذ أنها صنّاع وعمال من أنحاء المملكة الأسبانية ، وظلّ الملك بينهم يتنقل من مكان الى مكان ، آمراً ناهياً ناقداً موجهاً ، حتى ليقال بأنه أشار بتنفيذ أشياء وتصميمات وجهت عبقرية المهندس ومهارة البنّاء . ويقول المؤرخون إن الملك وجه من عنايته لاقامة هذا البناء ، قدراً لا يقل عما كان يوجه من عنايته لأخص حاجات المملكة وشئونها . ومن وادي الرامة كان يدير المملكة ويشرف على البناء ، محجوراً مزهوّاً بأنه يحكم شقيّ الأرض ، وهو يعزل عن الناس .

وأخذ البناء يشيد من فوق الأرض شيئاً بعد شيء، فكان أشبه بالمسجة يبدها مكن الملك ووضعها الكنيسة وجناحاها القصر والدير، ولقد كان في إقامة البناء على هذه الصورة صعوبات ذللها المهندس «بوتستا» بعبقريته الفاذة. ولكنه لم يعش ليرى ثمرة جهوده هيكلاً كاملاً. فلما مات في سنة ١٥٦٧، قام بالعمل «جوان دي هرّيرا» وهو مهندس غساوي من تلاميذ «بوتستا»، فلم يلبث أن يصبح من المقرّبين من الملك الحائزين ثقته التامة، حتى لقد جعل له الملك مرتباً سنوياً ألفاً من الدوقات، ومكتباً في السكن الملكي، وكرّم بأن منح وساماً رفيعاً يعرف باسم «صليب سان ياجو»: Cross of St. Jago. ولقد حفر اسمه واسم بوتستا على أحد أحجار الأسكوريال تنويهاً بهما عند الأخلاف، وانهما أعظم مهندسي اسبانيا في عصرهما.

* * *

بعد واحد وعشرين سنة من وضع الحجر الأول لهذا البناء، احتفل باتمامه. ولا شك في أن هذه الفترة من الزمن تعد وجيزة الى جانب العظمة والاتساع اللذين اختصّ بهما «الإسكوريال».

بدأ البناء وتمّ في حكم الملك فيليب الثاني. ولكن إقامة البناء كان بداية العمل في الزخرفة الداخلية والتأثيث. فلم يقتصر في ذلك على موارد إسبانيا وحدها، بل اشترك في ذلك جميع أطراف امبراطوريتها الواسعة. فالدمقس والحرير والقطيفة كانت من صنع غرناطة، وتنافس صناع المعادن في مدريد وطليطلة وسرقسطة في صناعة أدق التحف والزينات. واشتركت «ميلان» في تزويد القصر بما يحتاج إليه من صناعات الصلب والذهب والأحجار الكريمة. وجيء بالبشب من «بورجو دي أوزما» والطنافس من انفلندر، وخشب الأرز من أمريكا، ناهيك بالآبنوس وغيره من نوادر الأخشاب. أما ستائر المذابح فقد اشترك في صنعها جميع أديرة اسبانيا. وفوق كل هذا جاءت الأيدي الصنّاع التي أخرجت روائع التصوير ونحت لتضفي من جمالها على ذلك الصرح العظيم. فوفد من ايطاليا الفريكو، وانجو بيكورلا، وزكارو، ليمرّوا بأيديهم على قطع الفنّ فيصبوها في قالبها النهائي الرائع. ومن انفلندر وفد بوش، وميشيل كوكسي، ويقال إن تمثال المسيح

الذي نحت بالحجم الصغير من المرمر الأبيض كان من صنع بنفينوتو سكي . أما المقدس فصورة لوكاجيو رداتو ، فمثل فيه العهد الذي قطعه الملك فيليب الثاني في « سان كنتان » عندما هدم كنيسة القديس لورنس .

* * *

إن محيط بناء الأسكوريال ٢٩٨٠ قدماً ، وبه سبعة أبراج وخمسة عشر باباً . وتحوي ردهاته ثمان وستين نافورة ومنبعاً ، وبلغ وزن المفاتيح ١٢٥٠ رطلاً ، وعدد الأبواب والنوافذ اثنى عشر ألفاً .

قد يتفق أن لا يحوي بناء آخر في العالم تحفاً مثل تلك التي يحويها الأسكوريال . ولقد أنفق فيليب مبالغ طائلة في الحصول على بضع مئات من المخلفات المقدسة كعظام القديسين والشهداء لتكون من محفوظات الأسكوريال في محاريب غنية بالزخارف مرصعة بالفضة .

أما أعظم ما حوى الأسكوريال من الآثار فتلك المكتبة النادرة التي كانت في عهدٍ ما أغنى المكتبات الأوربية ، وكانت نواتها الأولى مجموعة من الكتب تبلغ أربعة آلاف مجلد ، كثيرٌ منها كان في مكتبة الملك الخاصة ، ومن بينها نسخة من أشعار فرجيل ترجع الى القرن العاشر ، ونسخة قديمة من القرآن ، ونسخة من سفر الجامعة تاريخها القرن الرابع عشر

على أن العناية التي صرفها فيليب نحو الموسيقى في ذلك القصر ، قد بلغت حداً يثير الاعجاب بمزايا هذا الملك العظيم . ففي سنة ١٥٧٢ أي قبل أن يتم تشييد البناء بأكثر من اثنى عشر عاماً ، أمر بنقل كتب التراتيل التي ستكون في الدير ، وهي مهمة استغرقت سبعة عشرة سنة ، حتى جمع منها ٢٦٠ مجلداً ، مجموع صفحاتها ١٥٫٠٠٠ صحيفة مغشاة بالجلد الثمين والخشب المغشى بالنحاس المغشى بالذهب . وقد أنفق في هذا وحده أربعين رطلاً من الذهب وخمسة آلاف وخمسمئة رطل من البرونز . ولم يكد ينقل هذه المجلدات يتم ، حتى بدأ العمل في مراجعتها واصلاحها ، بعد أن نسخت عن أصول كانت في كاتدرائية طليطلة

ومن أعجب العجب أن بعض الكتاب يلومون على الملك فيليب إسرافه . والواقع أن نفقات هذا المشروع قد بلغت ستة ملايين من الدوقات الذهبية . ولكن بأي شيء يقوَّم الآن ؟

قصة مترجمة

ڤيتالي

تأليف : جوتفريد كلر

عاش في الاسكندرية في بداية القرن الثامن عشر قسٌ عجيبٌ يجري وراء الغواني اللواتي يبعن أعراضهن كل يوم ولكل شارٍ ولا يزال بهنّ حتى يعيدهن سواء السبيل ويدلهن على وسائل كسب العيش الشريف وكان يعرض نفسه للإهانة والتحقير والانتقاد المرير ولكنه لم يكن يعبأ بشيء من ذلك .

وكان يحفظ سجلا يقيد به اسم كل غانية جديدة تهبط المدينة أو ضواحيها حالما يخبره بها شاب من شباب المدينة المشهورين الذين ما كانوا ليشكوا قط في أنه على غرارهم فاسق عربيدٌ ماجن ، ثم يجري الى الغانية الجديدة فاذا لقيها قال لها « احتفظي لي بالليلة التي تتلو التالية فلا تعدي بها أحداً » فاذا ما وافاها في الموعد المنتظر تركها واقفة وانزوى في ركن قصيٍّ من حجرتها وقضى ليلته معتبداً متعبداً حتى الصباح المبكر فيتركها بعد أن يأخذ منها موثقاً ألاّ تبوح لأحد بما حدث بينهما .

وسار القس على هذه الوتيرة زماناً كان يعظ ويرشد ويصلي ويتهجد حتى يثير الخير الكامن في نفوس أولياء البغايا ويخلصه من الشر الطاغي على طباعهن ويقتلع من قلوبهن الآثام والخطيئة ويضيء بنور الايمان والتوبة ويقدمهن الى المجتمع عضوات نافعات صالحات. كان يفعل ذلك سرّاً ، بينما كانت المدينة تتحدث عن القس الفاسق الذي انغمس في ملاذ الدنيا .

فاذا ما فوجئ فيما يقال عنه لم ينكر ولم يبرىء نفسه من التهم بل كان يقول « أوتظنونني حجراً أم أن الله لم يخلق مرأة ما لقس ؟ واذا ما سئل لم لا يخلع ثوب الرهبنة ويتزوج فلا يغضب الناس قال : فليغضب من شاء أن يغضب ومن ذا الذي يحاسبني ؟ ويقطع الحديث بقوله « كيف نسيت تلك السمراء الفاتنة دوريس » (انها تنتظرني لشد ما يسرّ عليّ أن أدعها تنتظر . فلا تُهنّ انيها ثوباً ! »

وكان يزاحم الشباب على أبواب البغايا، بل كان يصل به الأمر أحياناً الى العراك والقتال وكثيراً ما كان ينتصر ويدلف داخلاً الى وكر البغي قبل أن يفيق المتزاحمون من دهشتهم من ذلك القس الذي يزاحمهم في أشد الخطايا إغضاباً لله .

وكان سعيداً في أداء رسالته على النحو الذي اختاره لها .

وسمع يوماً عن غانية فتنت القلوب بجمالها وجاذبيتها . ووقف بابها جنديّ أنيق بالغ القتوة والقوة يذود الناس عنها كأنما كان يرى فيها متاعاً خاصاً به لا يجوز للعيون أن تتطلع اليه أو تزنو اليه . فقرر القس فيتالي أن يهجم على ذلك الحصن الحصين . وكما كان يفعل على أبواب البغايا الأخر فعل بباب هذه الغانية . فاشتبك في عراك حامي الوطيس مع الجندي الأنيق حتى اضطر هذا الى أن يخلي له الطريق ، فدخل الدار ورأى المرأة واقفة عند غاية السلم منتصبة الى الفوضاء . وكانت جميلة لا يحيط بجمالها وصف ، فاتنة لا حدّ لفتنتها . وكان شعرها الأحمر منثوراً كلبدة الأسد ، وما ان رأته صاعداً اليها حتى صاحت به .

— إلى أين ؟

— اليك يا عصفوري ! ألم سمعت عن فيتالي الرقيق اللطيف ؟

فسدّت عليه الطريق بجسمها المستلىء صحة وقوة وقالت :

— أتحمل مالاً أيها القس ؟

— إن القسس لا يحملون مالاً

— إذن فاذهب يا حضرة المحترم وإلاّ أمرت بك فضربت بالعصي .

ولما لم يكن فيتالي قد خطر بباله أن يقابل مثل هذه المقابلة التي لم يصادفها في تجاربه الماضية ، تولته الحيرة وأخذ يفكر في طريقة يخرج بها من مأزقه ، فأخذ يبحث في ثنايا مسوحه حتى عثر بعلبة فضية مرصعة بالحجارة الكريمة فأبداها للغانية قائلاً .

— لا أمتلك غير هذه فاقبليها مني .

فأخذتها منه وفحصتها بعناية ولما قنعت بها سمحت له بالدخول الى غرفتها . فلم يلق عليها نظرة أخرى ، وبدأ صلاته على النحو الذي تعوّده .

فظنت العاهرة أن القس بحكم عادته قد بدأ بصلاته قبل أن يقاربها ، فانطلقت ضاحكة وهي تجلس على فراشها تنظر اليه ، ولاح لها الأمر مسلياً أول شيء ، ولما طال بها برمت به فكشفت عن كتفيها وذهبت اليه واحتوته بين ذراعيها البيضاوين القويتين ، وضمت رأسه الى صدرها في قوة حتى كاد يختنق وظنت أنها قد أثارت بهذا العمل حيوانيته . ولكن الأمر لم يطل غير لحظة حتى أخذ يعمل جاهداً على التخلص من قبضتها الى أن تمّ له ذلك

بعد جهد ، ونزع عنه الحبل الذي يربط به وسطه وأخذ يصارع المرأة بكل قوة حتى استطاع أن يوثقها : يدين وساقين ، وألقاها بجانبها تلك على فراشها ، وعاد الى صلاته

وأخذت تحاول الفكاك من قيدها كالمبهوة الثائرة ولكنه لم يعبأ بها . وأضناها الجهد فظلت هادئة ترقبه في صلاته حتى انبثق الفجر . فحل وثاقها وكانت قد تأثرت بما رأت وبما سمعت فجثت بين يديه تائبة مستغفرة باكية فربت عليها في حنان ووعدها بزيارة ثانية ليدلها على سبيل شريف تعيش منه . وتركها بعد أن أوصاها بكتمان ما حدث بينهما وبأن تذكر إذا ما سئلت أنه كان مرحاً معها كل المرح .

وجاء في موعده الذي ضربه لها فوجد الباب مغلقاً والمرأة مطلة من نافذتها في كامل زينتها وبهرجها تسأله عما يريد . فقال لها في حيرة بالغة .

— ما معنى هذا ياغزالي ؟

— أتريدني أيها القس الفاسق ؟ أمعك مال أو ما يقوم بمال ؟

ولم يطق صبراً فاندفع نحو الباب هائجاً يدفعه في عنف ولكن الباب كان محكم الرتاج فنظر الى النافذة ورأى المرأة قد اختفت .

واضطر ثيتالي وقد رأى الناس يجتمعون من حوله ويضحكون منه الى ترك الباب ليبحث عن وسيلة تمكنه من معاودة اقتحام ذلك الوكر . وقادته قدماه الى كنيسة فدق درجها وذهب الى صندوق النذور واستول على ما به ، وعاد الى بيت البغي كأني مغرم برح به الشوق وأتلفه الصبر .

ولما بلغ الباب وجد أحد المعجبين على وشك الدخول فأمسك بتلابيبه ودفعه خارجاً وأسرع فأغلق الباب وصعد في خفة وسرعة الى حيث المرأة التي ساءها أن تراه بدلاً من ذلك المعجب المدنف ، وألقى المال على مائدتها قائلاً :

أيكفيك هذا لأقضي الليلة معك ؟

وأخذت تعد النقود فلما انتهت قالت :

— إنه يكفي

وأخذت تعد نفسها للاغراء والفتنة ، ضاحكة متثنية واقتربت من ثيتالي وأخذت تعبث بلحيته وتقابل نظراته الثابتة المستطلعة بنظراتها الفاتنة الساحرة ، فثارت فيه مادته وطهره وأمسك ذراعيها بيديه القويتين وألقاها على فراشها وظل جاثماً عليها ، وهي تحاول التخلص منه حتى تعبت وأجهدها الأمر فكفت وبللت دموعها خديها المتوردين ، وأظهرت ندمها وتوبتها ، فأطلق سراحها وجاس إلى جوارها ، بعد أن جلست وأخذ يعظها بفصاحة

وذلاقة لسان في شدة وصرامة ، ثم أخذ يلين لها القول حتى انتهى بالصفح والمغفرة . ولما اطمأن الى نتيجة عمله غادرها من النفق وذهب الى بيته .

وما إن أضحى النهار حتى ذهب اليها ثانية ليرى ما هي فاعلة بعد الذي حدث بينهما في الليلة الماضية وليطمئن الى انها لن تعاود الزلل . وما قارب باب البيت حتى رأى ذلك الجندي يحاول الوصول اليه قبله ، ولكن الجندي التي حربة كانت معه كادت تخترق رأس القس لولا أن مال عنها فغرست في الباب ، واستطاع ثيتالي أن يخلعها وأن يوجهها الى صدر الجندي فاخترقته وسقط مضرجاً بدمه فأحاط بالقس جمع من الجنود كانوا مارين بعقربة من المكان واقتادوه الى المخفر محقراً مهاناً .

وظل ثيتالي رهين محبسه أياماً ثم أفرج عنه ، لان قتله الجندي كان دفاعاً عن النفس ولكنه خرج من السجن موصوماً بوصمة عار جعلت الناس يطالبون بأن ينزع عنه لباسه وأن يجرد من درجته ، ولكن رئيس أساقفة الاسكندرية ، وكان على علم بحقيقة نواياه لم يستمع الى شيء من ذلك ، بل سمح لثيتالي بمتابعة هوايته .

فأسرع الى العاهرة التي لم تستمع إليه إلا بعد أن دفع لها أجر المبيت عندها . وتابت للمرة الثالثة ، ثم عادت ثم تابت ، وأنابت ، وأخيراً عولت على أن تتأرجح بين الاثم والتوبة لأنها رأت في ذلك فائدة قد لا تحصل عليها لو أنها سارت على نسق واحد من الاثم أو التوبة ، وهي في كل مرة تختلق له عذراً جديداً ، لتكث العهد وخلف الميثاق .

وتعذب ثيتالي نفسياً وجسدياً فيما كان يلقاه من تلك العاهرة . وكان يحس كلما أمعنت هي في خداعه رغبة أكبر في محاولة اصلاحها ، كأنما قد خيل إليه أن رسالته لن تتم إلا إذا عادت الى ربها ، وأقلعت عن غيها . ولشد ما كان يؤلمه ما صار إليه أمره ، فقد أصبح لصاً وقاتلاً ومرتكباً لكثير من الذنوب من أجل تلك المرأة ، ولكن هذا الالم الذي نال من صحته ومن قوته ومن تفكيره ، حتى أضحى يسير كالخيال ، وإن لم تفارقه ابتسامته ، كان عذباً عنده مقبولاً .

قبالة بيت آلام « ثيتالي » قطنت أسرة يونانية كان ربها من الأثرياء ، لم يكن له سوى ابنة وحيدة اسمها « يول » كانت في حل من أن تفعل كل ما يروق لها ، ولكنها لم تكن تستطيع شيئاً . فأبوها كان يجهد نفسه بالمطالعة والانشاء . أما يول فلم تكن لها هواية سوى الموسيقى فاذا يممت بها وضاق خيالها بذلك الجو الضيق الذي كانت تعيش فيه شغلت نفسها بالتطلع الى السماء والى الأفق البعيد .

وبهذا وقفت على أمر تردد القس على ذلك البيت ، وكذلك وقفت على الدافع الظاهري

التي يدفعه لذلك التردد وخجلت من مسلك رجل الدين . وكانت ترقبه خلسة ، منكرة عليه أن يهوى الى درك اقتراف مثل ذلك الاثم . وعلمت من احدى خادماتها التي كانت صديقة لاحدى بنات الهوى . كيف كان عبث العاهرة ، وماذا كان يرمي إليه من وراء مغامراته معها . دهشت وعجبت كل العجب من مسلك القس ، ولم تره على حق في السبيل التي اتبعها لتحقيق غرضه ، ولكثرة ما فكرت في شأن فيتالي صارت تراه في أحلامها . وكلما تكررت الرؤى زاد استياؤها منه ، وزاد في نفس الوقت حبها له !

وقررت بول أنه ما دامت السماء لا تريد أن ترد على القس احترامه ومكانته بهداية تلك العاهرة ، فلتأخذ على عاتقها اتمام هذا العمل وذهبت الى أبيها وطلبت منه أن يستعمل نفوذه في إبعاد تلك البغي عن الحي .

وذهب أبوها الثري وبيده سلاح لا يقهر وقابل البغي وأغراها بالمال وطلب منها أن تغادر الحي بعد ما قبضت منه ما أرضاها فغادرته بعد ظهر ذلك اليوم . وبهذا حقق لابنته ما رجته فيه ، واعتبر الأمر منتهياً وعاد الى دراساته ومطالعاته .

أما بول فلم تعتبر الأمر منتهياً بل أمرت بمسكن تلك البغي فأزيت منه كل آثارها وغيرت هيئته ، ولطف ورتب وأطلق فيه البخور والعطور . وأثثت غرفة العاهرة بسجاد ومصباح وغصن ورد . ولما آوى أبوها الى فراشه أخذت هي زخرفها وازينت وذهبت الى ذلك المسكن وجلست على السجاد وجعلت بباب البيت خادمين تثق بهما للفراقبة والحراسة

وجاء الى الباب الرواد الذين تعودوا أن يلجوه ولكن الخادمين صدهم وردهم على أعقابهم . وأخيراً جاء فيتالي فتنحى له الخادمان عن الباب وأفسحا له الطريق فعبر الباب وهو يتهدد وصعد السلم وهو يخشى أن تعاود المرأة السخرية به ، ويأمل أن ينجح في هذه المرة في اعادتها الى حظيرة الفضيلة والشرف ليتابع أداء رسالته مع زميلاتها الضالات . ولشد ما كانت دهشته حين رأى بدلاً من تلك المرأة الصاخبة ذات الشعر الأحمر ، فتاة وديعة جالسة على السجاد وأمامها غصن ورد . فأخذ يتلفت بحذة ويسرة ، حتى استقر بصره على الفتاة فسألها عن المرأة . وقال بول :

— ذهبت الى الصحراء تائبة لتكفر عن خطيئتها . وقد جئتها صباح اليوم واستطعت أن أنزع من قلبها الشيطان ففضلت التوبة وباعت متاعها وأخذت سبيلها الى الصحراء بعد أن تبرعت بثمن هذا المتاع للفقراء . وكانت تذكر اسم فيتالي وكانت ترجو أن يكون موجوداً ليعينها . فحمد القس الله على أن رسالته قد انتهت . ثم وردت بخاطره فكرة فسأل الفتاة وهو ينظر الى غصن الورد .

— من أنت ومن أين قدمت وما شأنك هنا ؟

فأطرقت بول الحسناء الى الأرض وأخذت عيناها السوداوان تنظران الى الطنفسة ثم رفعت رأسها وقد عنت وجهها حمرة الخجل مما كانت بسبيل الافضاء به إليه .

— أنا يتيمة لا أب لي ولا أم . فقدتهما ولم يتركا لي سوى ما ترى من متاع قليل ولقد أردت أن أنزل هذا المكان لآخذ نفس النهج الذي كانت تنهجه سابقتي .

— أوهذا زعمك ؟ يكاد الشيطان لا يفرغ من عمله . أتقولين هذا كما لو كنت لا تخاطبين فيتالي ؟ ماذا تظنين بسابقتك كانت تفعل فتريدين أن تنهجي نهجها ؟ أخبريني

— أريد أن أكون متعة للرجال ما دام العود أخضر .

وأشارت الى عود الورد وكلماتها لا تكاد تخرج من فمها وما أتمت حديثها حتى وقعت على الأرض خجلاً . فرأى القس أن الفتاة ما زالت بريئة وأن رسالته معها لن تستغرق منه وقتاً ولا جهداً . وأخذ يعبث بلحيته مفكراً في تلك الطفلة التي كانت على حافة الهاوية ، وحمد الله على أنه قد وصل في الوقت المناسب وسألها قائلاً : — وبعدئذٍ ؟

— وبعدئذٍ أظل امرأة فاسدة أحمل أوزاري الى أن يحين حيني أو أجد من يهديني ويؤويني في ملجأ أمين

— هذا حسن وترتيب معقول . والمرشد موجود والملجأ ميسور فتذهبين إليه طاهرة لم تدنسي بعد إلا بالفكرة وهي داعٍ لا بد منه للتوبة والاستغفار بقية حياتك المقبلة . والآن حطمي غصن الورد واصغي إليّ

— كلاّ . سأصغي أولاً ثم أرى إن كنت أحطم الورد أم لا . لأن العظة لن تنفعني ما لم أقترف الاثم وأذوق لذته ، وما لم توجد الجريرة فلا محل للتوبة والاستغفار . أقول لك هذا قبل أن تبدأ كلامك لتفكر فيه ومع هذا فإن بي رغبة شديدة لسماع نصحك

وأخذ القس يتدفق مواعظ بالغة ومنطقاً سلساً مستساغاً ونغماً حنوناً جميلاً ، ولكن لم يبلغ قلبها ، إذ انفلتت من شفتيها الجميلتين ضحكة مغرية ، فلما انتهى من عظته وقد تصبب جبينه عرقاً قالت :

— لقد تأثرت بعض التأثر وما زالت تجتاح قلبي رغبة ملحة في الاثم ولذته ، ووقف الرجل مشدوهاً ، فقد خابت فراسته لأول مرة ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً متهدداً مفكراً ، ينظر من حين لآخر الى تلك الفتاة التي تعد نفسها لجهنم وقوداً . وتعجب من اجتماع البراءة مع قوة الشيطان في تلك الطفلة إلا أنه ودّ جاهداً لو استطاع تخليصها مما هي مقدمة عليه . وأخيراً قال :

— لن أبرح مكاني حتى تتوبي ولو قضيت به ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ سويًّا .

— ذلك يزيدني اصراراً على اصرار فاترك لي فرصة للتفكير . وعد إليَّ غداً فان النهار يوشك أن يطلع . وأعدك بأني لن يعسى بشر. فعدني بألاَّ تذكرني لانسان ، وأن يكون مجيئك تحت جنح الظلام .

ووافق فيتالي ورحل . وانفلتت هي عقب رحيله الى بيت أبيها ولم تنم يومها كثيراً إذ كانت تفكر في المساء القادم وفيما قد يحمله من تجارب في طياته . وسرُّها أن قضت ليلة بطولها مع ذلك القس ورأت نار الحماسة تتألق في عينيه وقوة عزيمته في حركاته رغم ثيابه الكهنوتية . كانت ترجو أن يصبح لها زوجاً .

وجاء المساء وجاء القس ، فوجد بولا جالسة على السجادة تنتظره . فبدأ يتكلم ويعظ ويعمن في الارشاد ويصلي ويتفانى في الصلاة ، وكانت اذا تكلم أنصتت واذا صلى اضطجعت وتظاهرت بالنوم أو بالرغبة فيه ، فيدفعها بقدمه كما كان يفعل مع المذنبات الآثمات. ولكن قدمه ما كانت لتصل الى جنبها حتى تكون قد تفتت قوتها ووصلت هينة رخاء كالقس أو كالهمس ، ولم يكن قد عهد لنفسه هذا الذي أحسه نحو تلك الفتاة .

وعند ما اقترب الصبح أخذ رأسها يميل يمنة أو يسرة إعياء وجهداً ، فقال فيتالي :

— من العبث أن أحدثك فانك نائمين

ففتحت عينيها فجأة وابتسمت ابتسامة حلوة تحكي حلاوة الفجر وينعكس عليها اشراق الشمس وقالت :

كلاَّ لست نائمة بل منتبهة كل الانتباه . ولقد بدأت أشعر بفظاعة الاثم من مبلغ اهتمامك بأمري ، لما يرضيك يرضيني ، وما يغضبك أمقته كل المقت

فرح القس واستخفه الفرح فقال :

— أحقًّا تقولين ؟ أقدّر لي أن أنجح ؟ هلمي بنا الى الدير حالاً قبل أن يعود اليك الشيطان . — انك لم تفهمني وطأطأت رأسها قائلة : — اني أحبك !

فقفز فاه وجحظت عيناه دهشة مما سمع . وتابعت هي حديثها وقد زادت حمرة خديها :

— فمن واجبك أن توالي وعظك ونصحك لتخلصني تماماً من مرضي وأرجو أن تنجح

ولم ينطق فيتالي ببنت شفة بل جرى مسرعاً مغادراً الديت وبدلاً من أن يلجأ الى فراشه سار في الفراء يستقبل الصبح السافر ، وهو تهبة الأفكار المتضاربة ، أيترك تلك الفتاة الخطرة لمصيرها المقدر لها ، أم يواصل أداء رسالته معها حتى يخلصها مما هي واقعة له . وشعر أن منطقه قد بدأ يخونه ، وانه أصبح في حال جديدة ليس له بها من عهد

وساقته قدماه إلى تمثال الآلهة « يونو » فوقف حياله كأنما يسألها أن تخرجه من مأزقه. وقال يحدث نفسه « إذا أومأ التمثال أتم رسالته مع « بول » ، وإذا هز رأسه نفض يده من أمرها » . ولكن التمثال لم يومىء ولم يهز رأسه . ولكن حدث أن قطعاً من السحاب مرت وقتئذ فألقت ظلالاً على وجه التمثال جعلته يبدو مبتسماً . وتلك طبيعة المرأة اذا ما ذكرت في حضرتها الحب ابتسمت ولم يحل دون ابتسامتها حائل مهما كان أمره ! وزادت الابتسامة التي تخيلها فيتالي على وجه إلهة الحب القديمة من شجاعته كما زاد من عجبه ذلك الشبه الكبير بين تلك الآلهة والفتاة « بول »

وفي نفس اللحظة كان والد بول يتريض في حديقته ليلقي نظرة على تلك التماثيل القديمة التي اشتراها حديثاً . كان أحدها يمثل « لونا » تسوق عربتها فوق السحاب وقد تبدد الحب خلفها دون أن تعبأ به . وآخر كان يمثل « مينرفا » ساهمة والحب على ركبتها يداعب صدرها بيده ليرى أثر ذلك فيها . وهكذا كانت التماثيل لا تتحدث إلا عن الحب ، فأثارت في الرجل الهرم كوامن الشجن ، وشاء أن يقول شعراً يعبر به عما كان يحسه وقتئذ ولكن « بول » ظهرت أمامه شاحبة اللون إذ كانت قد أمضها الأرق فقلق خاطره وسألها عما أرقها ولم ينتظر جوابها ، بل أخذ يشرح لها قصة كل تمثال من تلك التماثيل . وتنهدت الفتاة قائلة :

— أعجزت كل هذه القوى التي تمثل الطهر والحكمة والدين عن أن تقاوم سلطان الحب ! فكيف لمخلوقة ضعيفة مثلي أن تتحصن منه ؟ فاندهش الشيخ وقال :

— ماذا أسمع ؟ أطعنك الإله « إيروس » بحرابه ؟

— وبلغت طعنته قلبي . وإذا لم أنل الرجل الذي أحببته بين يوم وليلة مت حبًّا ،

ورغماً من أن الرجل كان يسمح لفتاته بنيل ما تطلبه وتحقيق ما ترجوه ، فإن هذه العجلة وفي مثل هذا الأمر جعلته يتريث ويطلب من بول أن تتريث هي الأخرى ولكنها أصرت على نيل مأربها مما دعا الرجل الى أن يبدي عجبه قائلاً

— أتريدين مني أن أذهب الى الرجل الذي تهين فأجره من أنفه إليك وأرجوه أن يتزوج منك وأقول له : هاك فتاة بديعة أرجو ألا تحتقرها ولقد أستطيع أن أضربك إذا لم تذعن لرغبتها ، ولكني أخشى أن أغضبها بهذا العمل فتموت ، ولهذا فليس لي إلا أن أرجوك بحق السماء أن تذوق الحلوى المعروضة عليك فقد أجيد طهيها وستذوب في فمك !

فقالت الفتاة

— بل أنا التي آتيك به اذا سمحت وهو الذي سيرجوك أن تحسن بي عليه !

— وإذا اتضح أن هذا الرجل تافه حقير ؟!

— اذن فاطرده . ولن تفعل فهو قديس

— أسرعي إذن ودعيني مع نجمي وعائلتي .

وأقبل المساء ولم يكن الليل قد أظلم ، بعد حين دخل فيتالي في أعقاب يول في ذلك المنزل المعروف ، وكان دخوله هذه المرة مخالفاً لدخوله في المرات السابقة ، فقد كان قلبه ينبض في قوة وسرعة . كان فيتالي هذا غير فيتالي الذي غادر البيت مع مولد اليوم فلم يعد يحير ابتسامة العاهرة من ابتسامة العذراء الطاهرة . ولقد عوّل على أن تكون تلك الزيارة هي الأخيرة .

ولقد رأى في هذه المرة غير ما كان يراه في الزيارات السابقة . رأى الأثاث كاملاً وقيّماً لا يوجد مثله إلا عند ذوي اليسار وموفوري النعمة ، ورأى « يول » جالسة على فراش وثير وفي ثياب أنيقة وبدا له جمال الفتاة في تلك الليلة كأروع ما يكون الجمال . لا مأخذ عليه ولا موضع للنقد فيه . وأخذ فيتالي يبحث عن فصاحته فلم يجد لها أثراً ، وحرّك لسانه في فمه فوجده في مكانه ، ولكنه كان قد فارقته القدرة على النطق . وقالت يول :

— أنت في دهشة أيها القس الجميل من أمر ما ترى من زخرف وزينة ؟ انها حفلة الوداع للحي الذي كنت أرجو أن أعيش فيه . وسأتخلى عن عاطفتي نحوك بالرغم مني فأرجو أن تعينني على بلوغ هذه الغاية الكريمة وطلبي يسير وتنفيذه أيسر . فأنت تعلم أن النصح ثقيل على النفس مرّ المذاق ، فما بالك به إذا صدر عن قس لا يكاد المرء يراه حتى يعد نفسه لسماع عظة أو نصيحة ؟ والقس لا يدري ما هو الحب بحكم وظيفته ، فوعظه في هذه الناحية ضعيف غير مقبول لا يؤتي ثمرته المرجوة ، وأنا فتاة من فتيات المجتمع فانزل من سمائك الى أرضي وخاطبني بلغتي أستمع اليك وأني لعلى استعداد للائتمار بأمرك

ولم يتكلم القس بل رأى أن ما أشارت به يول وجيه ، وأنه قد يؤدي الى نزع الشيطان من قلبها ونفسها بضربة واحدة .

فانتحى ناحية وجد فيها خادمين ينتظرانه بثياب أنيقة ، وعاد الى « يول » التي ما رأته في هيئته الجديدة حتى صفقت طرباً

وحدثت المعجزة ولم يتناول التغيير مظهر القس فقط ، بل تناول كذلك نفسه فما أن جلس الى جوار تلك الفاتنة حتى تبخّر ماضيه كما تتبدد الأحلام ، بل نسي الغرض الذي كان يرمي اليه . ولم ينطق حرفاً من العظات التي كان قد أعدها وأكتفى بالانصات الى « يول » وهي تتحدث ممسكة بيده تقص عليه قصتها كاهي،فقالت له : من هي وأين تعيش وكيف كانت رغبتها أن يقلع عما كان عليه وأن يتقدم الى أبيها طالباً يدها فيصبح زوجاً

لها إرضاء لله. وانساب حديثها حلواً دفاقاً وهي تذكره قصة حب قديم ، وختمت حديثها بأن تنهدت قائلة إن آمالها قد انهارت وأمانيها قد تحطمت إن لم يسمح هو بالابقاء على هذه الأماني وتلك الآمال . وطلبت منه ألاّ يصدر حكمه إلاّ بعد أن يأكلا معاً الطعام الذي أعدته لها ، وكان قوامه اللبن واللحم .

وباشارة من يدها أتى الخدم عائدة عليها أصناف الطعام الشهي وأخذت تقدم له بيدها مما كان على المائدة وهو ممسك عن الكلام

وما أن انتهى من طعامه وشرابه ، وكان قد تمكن منه التعب والجهد حتى مال برأسه نحو يول وراح في سبات عميق حتى مشرق الشمس .

ولما استيقظ لم يجد معه أحداً فوقف على قدميه مسرعاً وأفزعه الثوب الأنيق الذي كان عليه ، فجاب جنبات البيت بحثاً عن ثياب الكهنوت ولكنه لم يعثر لها على أثر . وأخيراً رأى كومة من الرماد وفي وسطها بقايا ذلك الثوب الديني المحترق .

وسار من نافذة الى أخرى يرقب الشارع . وأخيراً أوى الى الفراش فوجده ليناً لطيفاً على غير ما الف من فراشه الخشن الجاف .

وقام من الفراش ثانية وأصلح من هيئته ونزل من الباب حيث وقف متردداً بعض الوقت ، ثم فتح الباب على مصراعيه وخرج كأكثر ما يكون رجل أناقة ووسامة لا يستطيع أحد أن يقول عنه إنه القس فيتالي ، بل سائح غريب جاء يقضي بضعة أيام في الاسكندرية .

ولو تطلع فيما حوله لرأى « يول » على سطح بيتها ترقبه . ولكنه سار قدماً نحو ديره وهناك قرر زملاؤه ورئيسهم طرده من زمرتهم لسوء مسلكه ، لا سيما بعد أن ظهر بينهم بهذه الثياب وثبت لديهم ما كان يكون فيه ، فانقضوا عليه وأخرجوه الى خارج الدير

وكان تصرف القساوسة معه قاسياً فأتى على ما كان في قلبه من حب للكنيسة وخدمتها فسار جادّاً الى حيث كانت « يول » تقيم مع أبيها ونفذ ما رسمته له

وأصبح فيتالي الزوج الكامل ليول كما كان الرجل الطاهر خلال التجارب العنيفة التي مرت به حين كان يتشح بثياب الكهنوت .

لم تدرك الكنيسة إنها أخطأت ، إلاّ بعد أن خرج « فيتالي » من عالم الآخرة الى عالم الدنيا .

عبد المنعم صادق

روبرت بويل

The Hon. Robert Boyle

كان روبرت بويل أول من وضع النظرية التي قام عليها أساس الكيمياء عملاً وفكراً . ومحصل تلك النظرية أن العنصر في الكيمياء هو أبسط كل المواد

كان أول ما أذاع نظريته هذه في مقال عنوانه الكيميائي الشكاك نشرت في سنة ١٦٦١ وقبل أن يضع « بويل » نظريته ، استمسك العلماء بغرض فرضه أرسطوطاليس في القرن الرابع قبل الميلاد إذ قال ان العناصر أربعة هي النار والماء ، والتراب والهواء ، وان كل المواد تتركب من هذه العناصر بنسب مختلفة . وكان استكشاف بويل حقيقة العنصر الكيميائي أكبر انقلاب أصاب الفكرة العلمية في جميع العصور .

هو ابن آرل كورك ، ولد بقصر « لسمور » Lismore Castel في ارلندة سنة ١٦٢٧ وفي الثامنة من عمره ذهب الى مدرسة في إيتون ، ومن ثمت الى اكسفورد ، وأمضى بقية عمره بين جدران تلك الجامعة مكرساً كل وقته وجهده لبحث العلمي .

من الاشياء التي اخترعها « المضخة الهوائية » واستخلاص مثيل الكحول من الخشب ، ثم « قانون بويل » الذي لا يزال مجرباً في دور العلم لاثبات أن حجم الغاز يختلف بالضغط .

« قبل عصر « بويل » كانت الكيمياء شبكة العنكبوت التي ينشرها مدعو الطب والسيميائيون . لكن تحمه العلمي في جامعة اكسفورد قد رفع علم الكيمياء الى مرتبة العلوم الطبيعية الثابتة فلا عجب إذن اذا أعتبر « بويل » الاب الاول لذلك العلم .

برشلونة

ـ أول مدينة ساحلية على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي الشمال الشرقي من اسبانيا والعاصمة الثانية لها والمنفذ الطبيعي للاقاليم الداخلية، أقيمت عند مصب نهر Llobregat في منطقة خصبة غنية بثرواتها الزراعية والصناعية كصناعة المنسوجات والقطن والورق وغيرها .

ونظرة بسيطة الى برشلونة تدلنا على أن التأثير العربي فيها لا يكاد يذكر ، إذ كانت عاصمة إقليم قطالونيا في عهد الرومان . ثم استولى عليها العرب عام ٧١٣ عند ما غزاها موسى بن نصير لاول مرة وأطلقوا عليها اسم (برشينونا) ثم شاعت (برشلونة)

لكن لم يلبث أن انتزعها شارلمان من العرب عام ٨٠١ ثم آلت اليهم ثانياً عام ٨٥٦ وظلت في أيديهم حتى أغار الفرنجة عليها لآخر مرة عام ٩٨٥ .

لذلك كانت أبنيتها القديمة قوطية الطراز ، وخاصة في الحي القديم منها ، حيث الكاتدرائية الشاهقة التي يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر . أما باقي المدينة الحديثة البناء متسعة الطرقات تزينها الحدائق المنسقة ، وتماثيل آية في فن النحت.

هكذا وجدنا برشلونة وسنعرض لأهم ما استرعى نظرنا فيها من تقاليد ومعالم وآثار .

تصادف أن أقيمت مصارعة للثيران (Corrida) كوريدا عصر ثاني يوم وصولنا الى برشلونة . فهرعنا لمشاهدتها بدعوة من محافظ المدينة . وقد أقيمت المصارعة في مدرج دائري يشبه « الانفتياتر » الروماني ، يتوسطه ملعب مستدير له أبواب يفتح إحداها لحظيرة الثيران الثائرة ، وآخر لأبطال المصارعة ومساعديهم .

ويظهر أن هذه الرياضة المحببة للأسبانيين ، المتأصلة في دمهم لم تكن من اختراعهم وابتكارهم وإنما توارثوها عن الرومان أثناء حكمهم لهم خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي، إذ كانوا يعدون أعداءهم برضعهم في وسط (الانفتياتر) ويطلقون عليهم ما جمعوه من الحيوان الكاسر كالأسود والنمور، فتنقض على أعدائهم ، وتفتك بهم تحت بصر الرومان . واستمرت هذه الظاهرة الى ما بعد الحكم الروماني ولكن بصورة أخرى ، فتهذب هذا الصراع بين الانسان والحيوان ، وأصبح رياضة ممتعة ، طرفا النزاع فيها الانسان والثور كما سنرى بعد .

كانت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية لاستقبال آلاف النظارة الذين وفدوا من كل حدب وصوب من أنحاء برشلونة وغيرها من المدن الاسبانية لرؤية هذه المصارعة المحببة لديهم . وأخذت هذه الوفود ترد وحداناً وزرافات فاحتشدت بهم الدروب والدرج المؤدية الى الأماكن المعد ، ولولا دقة الاشراف على دخول وخروج هذه الآلاف المؤلفة التي تبلغ نحو الاربعين ألفاً ، لما مرَّ اليوم بسلام دون حادثة من تلاطم تلك الأمواج البشرية .

وأفضل الأماكن لرؤية المصارعة ، تلك التي في الطبقات العليا من المدرج إذ يستطيع الجالس بها الاشراف على كل صغيرة وكبيرة في الملعب ، واذا أجلت البصر في أنحائه لا ترى إلا حركة واحدة تتمايل يميناً ويساراً كأمواج تداعبها الرياح على صفحة الماء ، ألا وهي حركة اهتزاز آلاف مراوح النساء — التي تعد لازمة من مستلزمات كل فتاة وامرأة أسبانية تروّح بها عن نفسها من قيظ الصيف المرتفع الحرارة ، كما تعبّر بحركتها عن كل ما يجول في خاطرها من مشاعر واحساسات .

وسرعان ما ابتدأ الشوط الأول من المصارعة — وهو أحد ثلاثة أشواط يتكوّن منها الملعب — وانفرج باب حظيرة الثيران عن فرجة انطلق منها كالسهم ثور (toro) متوسط الارتفاع قاتم اللون ، له قرون طويلة مدببة ، يتدفق قوة وحيوية ، يشع من عينه غيظ وشرر مستطر ، لينتقم من القوى البشرية الغاشمة التي لا تشفق بالحيوان ولا ترأف به .

يقف الثور وسط الملعب ، زائغ البصر باحثاً عن خصمه الذي أجبره على زاله ، ويتقطر من فوق عنقه بعض قطرات من نتيجة ضربة حربة في حظيرته قبل خروجه للمصارعة لتزيده شراسة وإمعاناً في عناده في المقاتلة ، ولولا قصر نظره لاندفع نحو حاجز الملعب وهاجم الجمهور ونكل بهم جزاء لهم على سخريتهم به ، وتضامنهم مع عشهم « البطل » متادور (Matador) المصارع . وقد أراد الله أن يحد من حركاته إلا في حيز محدود ، في منتهى بصره ، وأضفى بطء الحركات على المصارعة نوعاً من الهدوء مع خفة الحركة ، ممحوبة بتؤدة وحذر من جانب المصارع .

وسرعان ما توسط الملعب مساعدو البطل بملابسهم الوطنية التقليدية المزركشة بألوان زاهية يغلب عليها إما اللون الأصفر أو الأحمر ، ويبدو كل منهم « ملاءة » غالباً ما تكون حمراء كلون الدم لتثير الثور الذي يأبى أن يرى تلك الدماء لأنها تذير شؤمه عليه كما يبعث في نفسه الخوف من الموت المحقق الذي يدافع ضده لينقذ حياته بكل ما أوتي من قوة .

يدنو كل من المساعدين الثور بملاءته ساخرين منه ، وكلما ازدادوا به استهزاء ومداعبة وكلما ذهبت هجوم الثور صدًى كما ازداد الثور حدّة وغيظاً . وكلما ارتفعت

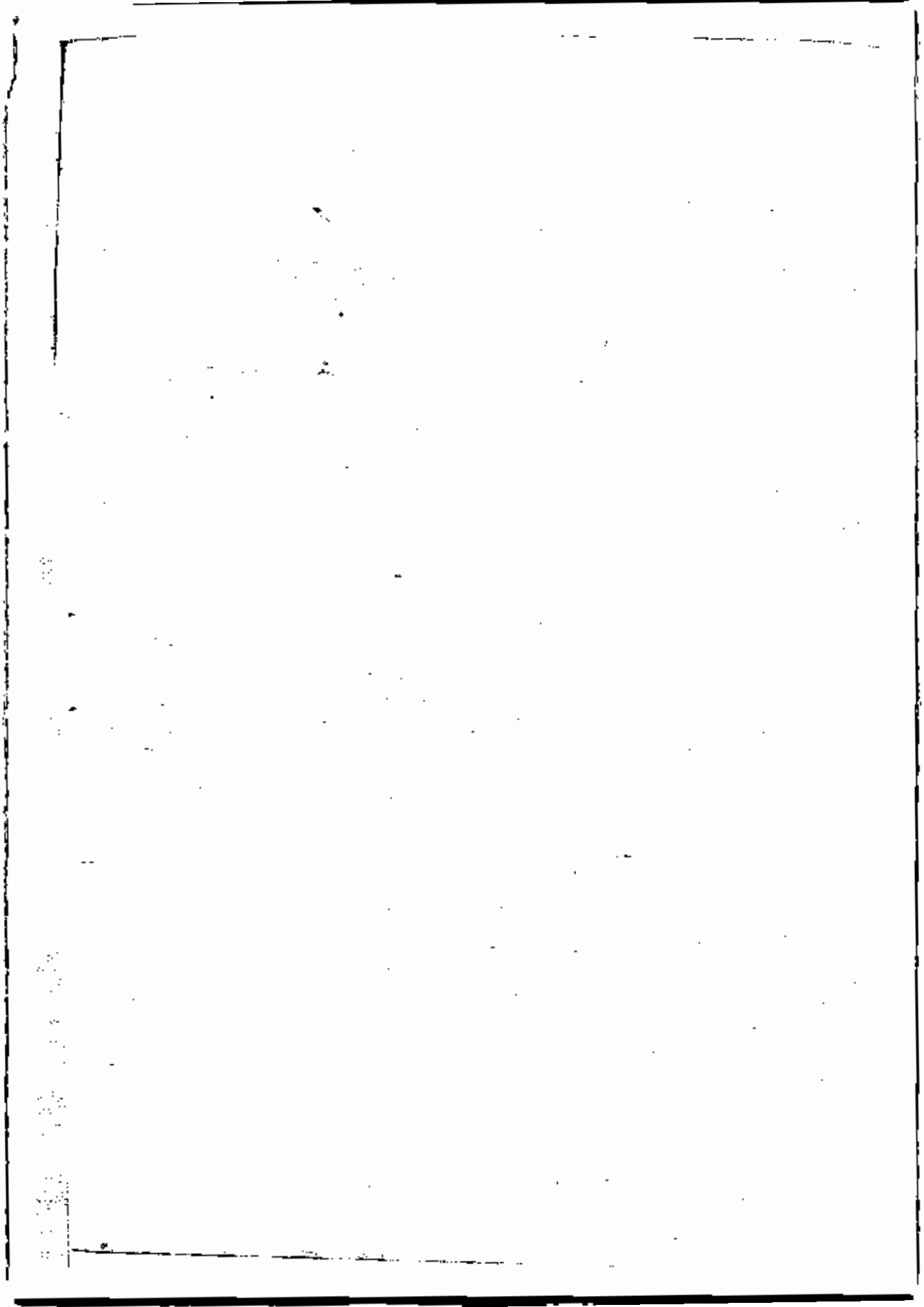

درجة غليان دمه ، وكيف في نفسه دون أن تجد منتساً كلما ازداد جنونه وتخبط خبط عشواء، واشتدت حركاته عنفاً واقداماً . وكلما كثرت مداعبة المصارعين للثور وأزالهم في هجومهم دون أن يصيبهم بأذى ، كلما اشتدت صيحات الجمهور إعجاباً بهم. وهكذا ينتهي هذا الشوط بين أنغام الموسيقى .

يبدأ الشوط الثاني بدخول مصارعين آخرين على ظهور الخيل، وقيت بطونها بدروع من حديد ، ويمسك كل فارس حربة كبيرة مدببة الطرف ، يتقدم الفارس رويداً رويداً نحو الثور الذي يبدأ بهجومه ويقابله برمحه الذي يندفع في عنق الثور الذي لا يلبث أن يشعر به ، فيتقهقر الى الوراء ليتخلص مما أصابه ، ثم يعاود الكرة مرة ثانية وثالثة ، وفي كل مرة يزداد فيها هجوم الثور على الفارس يزداد اندفاع الحربة في جسمه .

أما إذا أخطأ الفارس في ضرب خصمه فقد يعرضه لهجوم الثور عليه وطرحه أرضاً بفرسه ، وهنا تكون الطامة والموت المحقق إذا لم يدركه المصارعون المساعدون بملاءاتهم الحمر لصرف نظر الثور عن الفارس .

وقد كان في الزمن الماضي لا تقي الخيل درعاً واقياً أسفل بطنه . وكان كثيراً ما يصاب بقرون الثور فتشج بطنه وتتدلى أحشاؤه والفارس محتفظاً سهوته حتى آخر رمق في فرسه. وينتهي هذا الشوط بعد مصارعة ثلاثة أو أربع فرسان وبعد ان يجهد الثور وتخور قواه.

أما الشوط الثالث والأخير ، فهو المرحلة النهائية التي يظهر فيها بطل المصارعة مختالاً بجماله، وانعكاس أشعة الشمس على ملابسه ، فترتد الى عيون الجمهور، فيعجبون به ويزداد هتافهم وتلويحهم بما في أيديهم عندما يخفض من هامته محيياً إياهم ، ويقوم البطل بالدور الرئيسي الذي تنتهي بقتل الثور بأقسى ما يتصور العقل البشري كما سترى بعد .

يداعب البطل الثور حتى يجهد ، ثم يقوم بمرحلة من أخطر المراحل التي سيتعرض فيها للموت المحقق — كما حدث فعلاً قبل وصولنا لبرشلونة بعدة أشهر للبطل Manolete [1] الذي توفي بعد اصابات مميتة — لتهاونه لحظة التفت فيها للجمهور دون حذر من الثور . وعلى البطل في تلك المرحلة أن يتسم بالجرأة والشجاعة ورباطة الجأش ، والقدرة على تسديد ضربات حرابه في موضع معين فوق ظهر الثور عند اتصال عنقه بجسمه ، وعليه أن يضربه ثلاث مرات بثلاثة أزواج من الحراب ذات أيد قصيرة يتاز كل زوج منها بلون معين كالأخضر والأصفر والأحمر .

أما الخطوة الأخيرة ، فيلتهز البطل فرصة هجوم الثور عليه ، وفي لفتة معينة من لفتاته وانحناءة بسيطة لرأسه نحو الأرض ، ويضربه بسيفه ضربة قاضية ينفذ فيها السهم الى قلبه

فيرديه قتيلاً ، ويخر الثور على الأرض صريعاً مدرجاً في دمائه مسلماً روحه الى بارئها بعد نضال يائس للدفاع عن نفسه . تجره الخيول بسلاسل الى الخارج وسط دوي هائل من الهتاف بحياة البطل وشجاعته واقدامه . ويصعد الى عنان السماء صيحة الفرح والاعجاب بالله « أولي » مختلطة بأصداح الموسيقى . ولا ترى إلا آلاف مراوح النساء وقبعات الرجال وباقات الزهور تقذف الى البطل تقديراً لشجاعته وتعجيداً لشجاعته .

أما الثور[٢] الشهيد ، فقد يحتفظ البطل بقرنيه ورأسه لتحنيطها وتعليقها في بيته مع غيرها من الرؤوس الأخرى دليلاً على عدد انتصاراته ، كما يهدي لحم الثور الى أصدقائه أو الجمعيات الخيرية أو يباع للجمهور لطهيه .

وتتكرر هذه المأساة ثلاث مرات يقتل في كل منها ثور ، وبذلك ينتهي حفل اليوم .

لقد كان لهذه المصارعة أثر فعال في نفوسنا لأنها محاولة قاسية من الانسان لاظهار قوته في قتل حيوان بريء بأبشع صورة ، مستعملاً أشد وسائل التعذيب للتخلص منه بطريقة منظمة ، فاستنكف بعضنا هذه المحاولة من جانب الانسان المتحضر . واستنكر هذا العمل لقتل حيوان لاجرم ارتكبه ولا إثم اقترفه .

إذاً ما فائدة هذه الرياضة المقصورة على نفر قليل من الناس ، ولم يهتم باقي الشعب بها كل الاهتمام . ولم هذا الاقبال المنقطع النظير من الجمهور وحرصه على مشاهدتها ، وبذل أجور مرتفعة لا تقل عن جنيه مصري لكل متفرج .

هل الغرض منها جمع مال للدولة والقائمين بهذه المصارعة التي بلغت خلال عام ١٩٤٧ ما يقرب من ٧٥ مليون بزيتة (الجنيه المصري = ٤٤ بزيتة).

قيل لنا أن هذا المال يصرف جميعه على إقامة المصارعة ، إذ يبلغ ثمن الثيران ٢٨ مليون بزيتة ، وما أخذه المصارعون ٣٤٫٥ مليون بزيتة .

انا هناك معاني سامية خفية تنبع من هذه المصارعة ، فالاسبانيون يمجدون كل ما يحفظ قوميتهم ، ويبعث فيهم روح الجلد والصبر والشجاعة والاقدام والجرأة والاستهانة للدفاع عن النفس مهما قابلهم من صعاب ومخاطر . ولا يجد الاسبانيون وسيلة تحقق كل هذه الغايات السامية مجتمعة سوى هذه المصارعة ، فتأصلت في دمائهم على مدى الاجيال . ويكفي رؤية حفلة واحدة من حفلات المصارعة لترى الحماس والاعجاب يجري في دمائهم وسيظل يتدفق في عروقهم ما دامت هذه المصارعة قائمة .

وقبل ظهر اليوم الثالث وصلنا الى ميدان فسيح يتوسطه قاعدة تمثال شاهق يرتفع الى عنان السماء ، يعلوه تمثال كريستوف كولمبوس الرحالة العظيم ، مولياً وجهه شطر المحيط

في الصف الأول من اليسار : (١) [illegible] (٢) [illegible]
(٣) [illegible]
في الصف الثاني من اليسار : (٤) [illegible] (٥) [illegible]
[illegible]

الاطلسي وجزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية التي اكتشفها ١٤٩٨ لأول مرة ، كأنه يذكر الاسبانيين بالجهود الجبارة وفضلهم على العالم باكتشاف آفاق جديدة من عالمنا الحاضر هي أمريكا التي كتبت اسم الرحالة أمريجو الذي تتبع طريق سلفه كولمب ١٥٠١ باكتشاف ما لم تسنح به الفرصة لكولمب .

وفي أحد أركان ذلك الميدان المطل على ساحل البحر الأبيض ، حافظ الاسبان على أثر خالد أسس على مجد تليد قاوم صروف الدهر وأحداث الزمان ، فلم ينل منه إلا البلى الذي لا يتناسب مع ما يحيط به من عمائر العصر الحديث . ذلك البناء هو بقية من دار الصناعات البحرية Atarazanas التي كانت قائمة في الفترة ما بين القرنين ١٣ و١٨ الميلادي ، وهي تقابل عندنا «الترسانة» المخصصة لبناء واصلاح السفن البحرية . أما اليوم فقد استخدم الاسبانيون هذا البناء القديم في حفظ ما تبقى لديهم من مخلفات تلك الدار ، مع نماذج ما كانت تصنعه من السفن الاسبانية الأولى التي خاضت غمار بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) لاكتشاف أمريكا ، كما أعدّ به نماذج وصور السفن والمعدات البحرية كالخرط الجغرافية والبوصلة التي لم يستطع الحصول عليها ولا الابقاء عليها اليوم . ولذلك عدّت هذه الدار أعظم متحف بحري Museo Marimo لتطور بناء السفن حتى اليوم .

كما يضم هذا المتحف بين أروقته القمة الشاهقة الارتفاع نماذج لتطوّر بناء السفن البخارية . ولذلك يعد هذا المتحف صورة حقيقية لتطوّر بناء السفن الشراعية والبخارية خلال الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر .

فقد جمع به من السفن بين الماضي والحديث كما جمع في بنائه من الداخل بين الأطلال والخرائب وصالات العرض الحديثة المنسقة لعرض التحف والنماذج على أحسن نظام .

وفي نفس اليوم رأينا تراثاً آخر من التراث الاسباني لكنه لم يكن تراثاً عامًّا بل كان تراثاً إقليميًّا يخص مدينة برشلونة وحدها يرجع تاريخه الى ألفي سنة الى الوراء . ونراه اليوم بين ظهرانينا في المتحف الآتي في منزل حديث بالقرب من كاتدرائية برشلونه لا يبدو عليه من الخارج القدم ، ولا أثر من آثار الماضي ، ذلك ما تراه عند دخولك ، إذ تجد نفسك في قاعة فخمة حديثة ضمت كل المؤلفات التاريخية لمدينة برشلونة . تفتح هذه القاعة الى دهليز ضيق يؤدي بك الى الطابق الأول من البناء ، فتجد نفسك بين خرائب وأطلال مدينة برشلونة الرومانية ، نقلت بعض اجزائها الى ذلك المتحف لتعطيك صورة واضحة عن نظم العمارة وتخطيط المنازل بمرافقها العامة كالحمامات ونظام تصريف مياه دورانها في ذلك الوقت السحيق .

وفي جانب آخر من هذه المدينة اصطفت أواني الطبخ التجارية والرحى والمسارج والمواقد التي كانت مستعملة حينئذ ، كل ذلك وضع بنظام تام بين دعائم من الاسمنت للسلح أقيم عليها ذلك المبنى الحديث لحفظ محلات ومكاتب موظفيه .

* * *

وبعد العصر طفنا بأرجاء جامعة برشلونة التي يرجع تاريخها الى القرن ١٥ . وبعد زيارة قاعات المحاضرات والمكتبات استقر بنا المقام للاستراحة بعض الوقت في إحدى قاعات الاستقبال لنتجاذب أطراف الحديث مع زملائنا الجامعيين من الأساتذ ، وخاصة الشئون الثقافية التي منها نظم التعليم في أسبانيا ، ويظهر أن التعليم عندهم يشبه الى حدّ كبير التعليم عندنا في مراحله الأساسية الآتية : —

١ — مرحلة التعليم الابتدائية وهي مرحلة اجبارية لتعليم كل طبقات الشعب ويلحق بها الأطفال في سن السابعة الى سن الرابعة عشر ، وهي تقابل مرحلة التعليم الأولي والابتدائي عندنا . وقد رأت وزارة المعارف المصرية ضرورة توحيد التعليم في مراحله الأولى في مرحلة واحدة هي المدارس الأولية النموذجية .

٢ — مرحلة التعليم المتوسط : ويكتفي لمن يريد الالتحاق بهذه المرحلة ومرحلة التعليم الثانوي ان يقضي ثلاث سنوات بالتعليم الابتدائي . وتختلف سني الدراسة بالتعليم المتوسط حسب نوع التعليم كما يلي :

(١) مدارس البوتية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يضاف اليها سنتان أخريان يتمرّن خلالها الطالب على ركوب البحر ويمنح بعدها شهادة معلّم بوتي .

(٢) مدارس المعلمين الابتدائي ، ومدة دراستها ثلاث سنوات .

(٣) مدارس التجارة المتوسطة ومدتها خمس سنوات .

ومن يريد الالتحاق بالتعليم الجامعي ، فعليه أن يقضي سبع سنوات بالتعليم الثانوي ويلتحق به التلاميذ من سن العاشرة حتى السابعة عشرة ، يتعلم فيها اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والانكليزية وأدب الاندلس والأدب العالمي وتاريخ الاندلس والتاريخ العالمي والفلسفة والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة يمنح بعدها امتحان القبول بالجامعة .

﴿ الجامعة ﴾ يبلغ عدد الجامعات الاسبانية اثنتي عشرة جامعة لا يزيد عدد كليات كل منها على سبع ، ولا تقل عن ثلاثة ، وجميعها يضم كليات (الفلسفة والآداب) والعلوم والحقوق . وقد بلغ عدد طلبة هذه الجامعات حسب احصاءات ٤٦/٤٥ ما يقرب من ٤٣ الف

نسمة ، ثلثهم من الآناث . بينما تعداد اسبانيا كلها ٢٧ مليون نسمة. ويظهر أن اقبال الفتيات على التعليم الجامعي لم يكن كثيراً بالرغم من حرية الفتاة التامة في أن تتعلم ما تشاء وتلتحق بما اختارته من كليات الجامعة ويلتحق أغلبهن بالكليات النظرية كما هو الحال في مصر لملائمتها لاستعدادهن الطبيعي . أما أقل الكليات اقبالاً عليها فهي كلية الطب والحقوق والطب البيطري لأنها كليات لا تتفق وما خلقن له من الحياة . فكلية الطب وما فيها من تشريح يحرج احساساتها الرقيقة ، كما لا يتحمل خريجات الحقوق مشاق النيابة أو القضاء وغير ذلك .

إذا قارنا تلك الحال في أسبانيا بنظيرتها في مصر ، وجدنا أن جامعاتنا لا تزيد على اثنتين وعدد طلابها لا يزيد على العشرين الفاً بينما تعدادها يقل سبعة ملايين نسمة فقط ، بغض أولو الأمر باقامة جامعتين في كل من عاصمة الوجهين القبلي والبحري ، ويجب ألاّ يحرم الشعب من التعليم الجامعي وخصوصاً بعد أن تجلت رغبة الشباب وتشوقه الى التعليم ولا ضير من ذلك التوسع في التعليم ما دمنا قد احتفظنا بمستوانا العلمي . وليس معنى ذلك اننا نطالب بانشاء اثنتي عشر جامعة كأسبانيا ، بل نطالب بتحقيق ما فكرت فيه الحكومة جدياً بانشاء جامعة أسيوط ، وأخرى في طنطا فيتوفر لطلبة تلك المناطق مشاق السفر والغربة ومطالب الحياة ، كما يقل الضغط على جامعتي فؤاد وفاروق ، ويستطيع طلبتهما التفرغ لدراستهم بالبحث والتروي والتمحيص في جو هادىء لا تقلقه كثرة الطلبة ، ولا تستلزم جهداً من الأساتذة في إبلاغ ما يريدونه الى أذهان طلبتهم فيرتفع مستوانا العلمي .

وإذا نظرنا الى نسبة الأمية في كل من القطرين نجدها في أسبانيا ٣ ر ٤١ ٪ بينما في مصر لا تقل عن ضعف هذه النسبة في اسبانيا . وقد أخذت الحكومة الاسبانية تعمل جاهدة على مكافحة الأمية بشتى الطرق التي منها عدم أطلاق سراح أي جندي في الجيش إلاّ بعد أن يتعلم القراءة والكتابة .

ونحمد الله على عناية حكومتنا في هذه الناحية في السنوات الأخيرة لتنفيذها مشروع السنوات الخمس لمكافحة الأمية متمنين لها التوفيق في مهمتها .

تخللت تلك المحادثات بيننا وبين زملائنا الاسبانيين بعض ما سمح به كرمهم من تقديم بعض المرطبات التي أهمها ، على سبيل المثال شراب شعبي أبيض اللون ، حلو المذاق والرائحة ، غريب عنا في طعمه ، بالرغم من أنه في متناول يدنا ، فهو شراب من عصير حب العزيز ويطلقون عليه «ارتشاتا» ويصنعه الاسبان كما نصنع نحن المصريين شراب عصير الشعير (سوبيا) .

وقد أتيحت لنا فرصة أخرى للرد على جميلهم في مناسبة الاحتفال بعيد ميلاد زميلة

اسبانية تدعى « انبارة » وكان من حسن الصدف أن كان مع أحد أعضاء الرحلة بعضاً من « القمر الدين » جلبه معه من مصر . وقد أحسنت زميلاتنا المصريات صنعه فاستساغه الاسبانيون وأقبلوا به .

* * *

وفي اليوم الثالث تركنا مدينة برشلونة لنقضي نزهة خلوية في أحد ضواحي المدينة الجنوبية « مونتسرات Montserrat » وهي منطقة جبلية متنوعة المناظر بين الوهاد والهضاب وسفوح الجبال ، مغطاة بأنواع شتى من الأشجار كالصنوبر والبلوط وأشجار الفاكهة . وقد استغل الفلاحون سفوح هذه الجبال وتربتها الحمراء الخصبة ، وأعدوا سفوحها على شكل مدرجات لزراعتها ، يساعدهم على ذلك تعرض سفوحها ، وخاصة الجنوبية لأشعة الشمس وسقوط الأمطار عليها .

وسط تلك المروج والسفوح الخضر صعدنا طريقاً ملتوياً أخذ في الارتفاع تدريجياً ، حتى وقفنا أمام حافة جبل شاهقة الارتفاع من الصخور الصلدة التي لا سبيل لتسلقها لشدة انحدارها . قيل لنا هذه قمة مونتسرات التي تعلو بمقدار ١٢٦٣ متراً عن سطح البحر اليها . أقيم في سفح ذلك الجبل فندق صغير لراحة السائحين ، ويتصل بقمة الجبل بسلكين كهربائيين تنزلق عليه عربتان صغيرتان تتبادلان الصعود والهبوط في دقائق معدودات يسع الواحدة منها نحو عشرين شخصاً .

واستغلت مصلحة السياحة هذه القمة فجعلتها جنة وارفة ويسرت للسائحين كل أسباب الراحة في ذلك الجو الهادىء الخلاب ، ففي المشاعر الساحرة ، فأقامت بها المطاعم والفنادق وأمدتها بالماء اللازم ، كما أعدت أماكن ساحرة للاستمتاع بها تشرف على هوة ساحقة أو وهاد عميقة .

وفي أعلى نقطة من القمة أقيمت قبة تلسكوب للرصد يصعد اليها بدرج ضيق طويل .

وكان الأجدر بمصلحة السياحة المصرية أن تستغل المرتفعات المحيطة بالقاهرة كتلال المقطم ، وتحيلها الى رياض غناء وارفة الظلال ، وتيسر لها سبل الانتقال المغرية كالعربات الكهربائية المعلقة ، وانشاء المطاعم والفنادق كما فعلت أسبانيا بمرتفعاتها .

محمد رجب البيلي

---

(١) ماتوليثر من المصارعين الاسبانيين في الوقت الحاضر وقد ارتفع أجره الى رقم استثنائي اذ بلغ ٢٥٠٠ جنيه عن كل مصارعة وهو من قرطبة ويبلغ من السر ٢٠ عاماً

(٢) ترى هذه الثيران البرية في مراعي الاندلوسيا ويلتقي للمصارعة أشدها قوة وتحد الحكومة طول قرونها وتحرم مصارعة الثيران التي سبق لها ان نازلت مصارعاً أو رأت وشاحاً

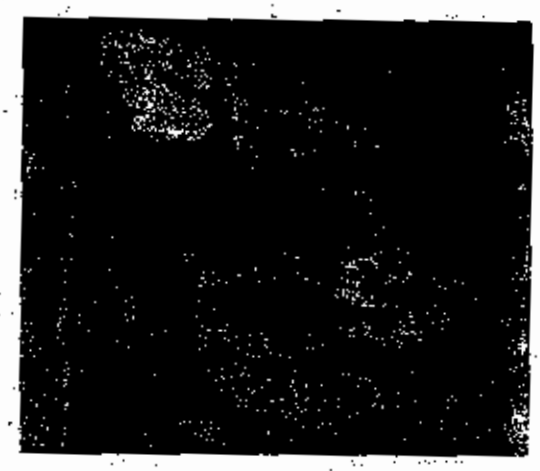

جمجمة من العصر الجيولوجي الاوسط

كشف علمي جديد

A Skull from the miocene age.

العصر الجيولوجي الأوسط معروف عند أهل أوربا باسم miocene age وهو من العصور التي كثر فيها الظهار بقايا الحيوانات الثديية وبخاصة الرئيسات Primata وهي الحيوانات العليا التي تتقدم في حلقات النشوء ظهور البشر .

وقد عنيت الجمعية الملكية البريطانية بالبحث عن هذه الطبقات فأرسلت بعثة علمية باسم بعثة كينيا البريطانية ، وخصت البعثة بالبحث اقليماً اسمه اقليم « كافيروندو » بمقربة من بحيرة ڤيكتوريا ، فعثرت في موسمها الثاني على أثر مستحجر من أهم الآثار التي خلفتها الرئيسات في طبقات الأرض . فقد أعلن دكتور ل . س . ب . ليكي Dr. L. S. B. Leakey مدير الحفريات في ذلك البحث خبر العثور في جزيرة روسنجا Rusinga في الثاني من شهر اكتوبر الماضي على الجزء الاكبر من جمجمة لقرد من نوع من القردة عاش في العصر الجيولوجي الأوسط يتبع جنساً يعرف في العرف العلمي باسم فروكنسول Proconsul . ويرجح أنه من النوع الذي وصفه العلامة هوپوود : Hopwood وأطلق عليه فروكنسول الأفريقي : P. africanus.

ومرافقة هذا الكشف تنحصر في أن كل البقايا الحفرية التي عثر عليها في افريقية من مخلفات العصرين الأوسط والأحد Pliocene (أي العصر الثلثي الحديث) قد اقتصرت على بضع أسنان وقطع من فكوك غير كاملة. أما هذا الكشف فعبارة عن الجزء الأكبر من هيكل وجهي وباحة كبيرة من الحنف: Brain case. ولقد يرى من الصورة التي تنشرها مع هذا الكلام أن الفكين والهيكل الوجهي كاملة تقريباً، ولو أنها غير مستقرة تماماً في وضعها الطبيعي لتشوه أصاب الجزء الأيسر.

وأهم ما في هذه الجمجمة من الحالي التشريحية ظاهر في منطقة الجبهة، فانها خالية تماماً من الجيد النوقيحاجي: Subra-orbital torus، وهذا الجيد من الظواهر التشريحية المبينة في القردة البشرية الأفريقية التي تعاصرنا. والمظهر الثاني الذي يلفت نظر المشرحين، هو رقة الجدار الحنفي: Cranial Wall. وهذه البقايا هاشة كل الهشاشة، وأجزاؤها ضعيفة التماسك، بحيث احتاجت الى عناية تامة ومهارة فائقة لاستخلاصها من المحيط الذي انطمرت فيه.

ومسز ليكي أول من وقع نظرها من افراد البعثة على هذا الركاز العلمي النفيس، وكان أول ما ظهر لها منه بعض أجزاء من هذه الجمجمة، انحسر عنها الرماد في منحدر كانت تعمل فيه البعثة، فنبهت زوجها الى ما ظهر من هذه الأجزاء، فاستدار بالحفر من وراء المكان الذي استقرت فيه، وما زال يعالج الموقف بعناية العالم الخبير، حتى استخلص هذا الأثر الحفري الثمين.

وقد نقلت هذه الجمجمة الى انجلترا بالطائرة حيث رافقتها مسز ليكي فوصلت هنالك في ٣١ أكتوبر من السنة الماضية (١٩٤٨) وأودعت في المتحف الخاص بقسم التشريح البشري في جامعة اكسفورد، ليكب العلماء على دراستها دراسة كاملة، وتقارن بما يقرب من مئة أثر حفري عثرت عليها بعثة كينيا العلمية البريطانية في بقايا رواسب العصر الأوسط الجيولوجي في خلال العامين الماضيين. والى جانب ما عثرت عليه البعثة من بقايا الرئيسات المستحجرة في طبقات ذلك العصر، جمعت كثيراً من بقايا الفقاريات Vertebrata، وكانت من أكثر البعوث العلمية توفيقاً في خدمة العلم.

أين المفر

ديوان شعر جديد للشاعر: محمود حسن اسماعيل

«فيأيتها الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق
شقي حجاب السر المختم على جراح الوجود
«والطمي ظلام الحياة الشقية بعويلك الجبار علها تهتك قناع الرق عن وجهها الجاني على رباء الزمن
ومرّي بترنيمك السماوي على أسوار هذه الأرض المحروقة من الشور .... لعلّ سحرها يصحو من غطيطه الطويل على دف هذه المزامير، ويقتات بإشراقة من هذا الغناء الجديد
«واجرفي بنارك الحرة الواثبة هشيم الواقفين بتوابيت الماضي في طريقك الطويل؟ وأيقظي الغاب والرعيان . . . . . محمود حسن اسماعيل
«وانتضي عنك غبار الذل والعبودية، واطلقي الفكر في ظلمات وجودك ينيرها ويضيء جلاميدها، فيحولها شعلة قدسية تتلألأ كأنها كوكب درّي توقد من شجرة مباركة أصلها ثابت في أغوار الماضي، وفرعها ينبثق في الأزل
«ورفرفي بأجنحتك السماوية ضاربة في أجواز هذا الكون نحو اللانهاية، نحو موقظ الأرواح
«وحطمي الحجب ومزقي الأستار، وتوجهي نحو المجهول الذي يتوسل اليه المتوسلون بدعائهم صارخة: جد علي بشعاع منبج من نسمات غفرانك وأيقظ روحي
«وثوري على الزمن وعلى الأقدار، وانسي شقاء الماضي، واستقبلي أشعة الأمل يضفيها عليك المستقبل الباسم، وأذلي أعناق أعدائك وضعيها تحت نعل أقدامك في

الرغام ، وارسلي الصيحة الداوية تزلزل منك الأرض ، وتهتز لها الجبال ، واقذفي وجوه الجبابرة العتاة بحمم من إعانك

« أنت أيتها الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق

« ارسلي رياحك الهوج على ذلك الضباب فبددّيه ، وتنسمي الشمس والدفء والحياة ، وادرجي بقدم ثابتة وجنان وثاب : فان المجهول الذي يوقظ الأرواح قد تنفس لك نوره . إنه مس آلامك . انه رآك .....

* * *

هنا في ديوان هذا الشاعر الذي يبحث عن مفر تفلت منه تلك الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق ، تكمن هذه الروح . الروح التي تحلق في آفاق الشعر البعيدة ، فتلهم المدى الفذ ، والخيال الرائع ، والعبرة التي تعظ والحكمة التي تبقى ، وتسقيك الخمر التي توقظ ، وتريك الحياة التي لا تموت .

هذا الشاعر أنشودة متصلة الترانيم ، متسقة النغم ، كأنه القيثارة التي لا تضرب عليها أصابع فانية ، بل تعزفها مشاعر تستمد من أعمق أغوار النفس ، ومن أبعد غمرات الوجدان ، فتخرج هفافة كأنها النسيم ، ريّانة كأنها ضفاف النيل الندية ، تلك الضفاف التي اختلبت الشاعر وأوحت بالشعر ، أو كأنها قطرات الندى الصافية على ورق الصفصاف التي تتدلى أماليده الطويلة على الضفاف فتوحي بالنيل ومصر ، وبالقرية والشمس وبالجزيرة ، وعبيد الرياح الذين تستعبدهم رياح النيل وموجه اليمم الغضوب ، وحصاد القمح وصلاة العشب والبعث وامشك والطريق الى الله وخمر الزوال وثار الغروب والنبي الجائع ، تلك القصائد التي تنشق من خلالها نسمات الحب والثورة والجمال والحلاوة والعنف والغضب والعفو والسخط والرضى والأمل واليأس ، كل هذه أشياء تمتزج في نفسك اعتلاجها في نفس هذا الشاعر ، فتنتقلك من أفق الى أفق ، ومن سماء الى سماء ، ومن طيف الى طيف ، ومن أرض الى أرض ، فلا تلبث أن تأنس من روحك أنها مأسورة في أغلال تلك المعاني الفائضة ، فلا تنكر على الشاعر أن يسمي ديوانه « أين المفر » ؟ كلاّ . لا مفرّ . . . إن لم يكن في نفسك الحمى والمستقر .